الدكتور
عبد الحليم محمود

الطريق إلى الله

"كتاب الصدق" لأبي سعيد الخراز

الطبعة الخامسة



دار المعارف

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمـــة

«كل مافاتك – من الله سوى الله – : يسير ، وكل حظ لك ، سوى الله قليل » .

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد : نبتدئ الحديث عنه ، ولانبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً ، ولكن لأنها محور تفكيره .

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتنها ؛ فاختط لنفسه طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله ، رضى الله عنهم .

لقد ابتدأ – كما تبتدئ الصفوة المختارة – باحثاً منقباً عن الله ، فوجده ظاهراً فى آثاره :

لقد وجده فى النسمة العليلة ، وفى الزهرة الندية ، وفى النجم المتألق ، وفى شعاع الشمس الذهبى ، لقد وجده فى الخير ، وفى الجمال ، وفى الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته ، كما يصف هو ، فيقول :

« والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ، ولايتسلى عنه بشىء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره »

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً :

أسائلكم عنها ، فهل من مخبِّرٍ؟ فمالى بِنعُمٍ – مذنأت دارُها – علم !

فلو كنتُ أدرى أين خيَّم أهلُها ؟ وأىَّ بلاد الله – إذ ظعنوا [1] أمُّوا [2] !

إذن لسلكنا مسلك الريح خَلْفها ولو أصبحت نعمٌ ، ومن دونها النجمُ !

وكثير من الناس من يُفيض الله عليه النعمَ ، ويمنحهم من جوده فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ ، غير متجهين إليه سبحانه .. !

أما أبو سعيد : فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئاً آخر .. إنه يعبر عن منهجه حين يقول :

« ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء : بالمعطى ، ولذتك فى اللذات : بخالق اللذات ، وتنعمك فى النعم : بالمنعم دون النعم ، لأن ذكر النعمة ، عند ذكر المنعم : حجاب ، ورؤية النعمة ، عند رؤية المنعم : حجاب » ويشرح حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .. » فيقول : « واعجباً ممن لم ير محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه » ! !

وفى الاتجاه إلى الله : نعيم لايعدله نعيم ، ولذة لاتعدلها لذة . . . وإذا نعم الناس بملبس يبلى ، أو بمطعم لاتلبث حلاوته أن تزول ؛ فإن

---

(١) ظعنوا : ارتحلوا وسافروا .

(٢) أموا : قصدوا واتجهوا .

لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار ! ![1].

إن لهم نعيمهم الروحى ، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب الطاهر.

يقول أبو سعيد :

« إن الله تعالى عجلَ لأرواح أوليائه التلذذَ بذكره ، والوصولَ إلى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزلَ نصيبهم من كل كائن » فعيش أبدانهم : عيش الجنانيين (أهل الجنة) ، وعيش أرواحهم : عيش الربانيين ».

ولاعجب ، بعد ذلك ، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخدان ، أن يكون أنسن أبي سعيد بالله ؛ ولاعجب أن يكون حديثه عن الأنس بالله : يمتاز بالدقة والوضوح .

يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله : ماهو؟ :

« استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوؤها: فى سكونها إليه ، وأمنها : معه ، من حيث الروعات ، وإعفاؤه لها من كل مادونه : أن تشير إليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولاتحمل جفاء غيره »

---

(١) الأوضار : جمع وضر ، والوضر : وساخة الدسم واللبن . . . القاموس .

حياته :

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريباً ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسريًّا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم .

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

« هو : من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم »

ويذكر أنه قيل :

« إنه أول من تكلم فى علم الفناء » .

أما صاحب الحلية ، فإنه يقول عنه :

« ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة ، والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء »

ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريباً : بأنه روى الحديث التالى بإسناده :

« سوء الخلق : شؤم ، وشراركم : أسوؤكم أخلاقاً » .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .
ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين .

رأيه فى المعرفة :

يهدف الصوفية دائماً ، إلى معرفة ماوراء الطبيعة معرفة يقينية ، ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

إنها — حسبما يرى أبو سعيد — : «تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود »

إنها فيض من الله ، وإنها اكتساب وجهد ، وفى الوصول إليها السعادة ، بيد أن طريقها — وهو نفس الطريق إلى الله — : ليس سهلا هيناً ، وإذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً .

كيف نصل إلى الله ؟ ماهو الطريق إليه ؟ كيف نصل إلى خالص العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله ، فبين أنه :

التوبة ؛ ثم ذكر شرائطها ؛ ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية ؛ وهو : طريق نفسانى سيكلوجي ؛ من أدق مايكون ، ينتقل فيه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ؛ مترقياً من مقام التوبة ؛ حتى يصل إلى مقام المحبين ، ويترقى إلى مقام المقربين .

فإذا وصل إلى هذه المرحلة ؛ أدمنت روحه النظر فى النعمة ؛

وفكرت فى الأيادى والإحسان ، فانفردت بالذكر ؛ وجالت فى ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة . فنعمت وسعدت .

ولنذكر ذلك بأسلوبه ، نقلا عن كتاب : «حلية الأولياء» :

قال أبو سعيد :

«إن أوائل الطريق إلى الله : التوبة»

وذكر شرائطها .

«ثم ينتقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف .

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء .

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين .

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين .

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين .

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين .

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

وذكروا لكل مقام عشر شرائط ، إذا عاناها وأحكمها ، وحلت القلوبُ هذه المحلة : أدمَنتِ النظر فى النعمة ، وفكرت فى الأيادى والإحسان .

فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ، وإليه فى محبته ناظرة .

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سوادَ الليل أُنساً بذكره   وشوقاً إليه ، غيرَ مستكره الصبر

ولكن : سروراً دائما ، وتعرصا   وقرعا لباب الرب : ذى العز والفخر

فحالهم : أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ، ونورت قلوبهم ، لكى ينظروا إلى ملك عدْن ؛ بها ينزلون ، فتاهوا بمن يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتفون .

حلّوا فلم يظعنوا ؛ واستوطنوا محلته ، فلم يرحلوا ، فهم الأولياء ، وهم العاملون ، وهم الأصفياء ، وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب ، هم به آمنون ؟ وعزوا فى غرف ، هم بها ساكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فلمثل هذا فليعمل العاملون »[1]

فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة ، هل يتأتى له أن يعلم مايخالف الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل إليها ، يخالف الظاهر؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة ؟ !

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة :

---

(١) حلية الأولياء المجلد العاشر ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

كل باطن يخالف ظاهراً : فهو باطل .

* * *

وكتاب الصدق – وهو الوحيد الذى بقى من آثاره[1] ، والذى نقدمه اليوم ، مغتبطين ، إلى القراء – : كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لايصح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ، لايستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء .

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم – فى دقة وفى وضوح – الطريق إلى الله[2] ! !

عبد الحليم محمود

---

(١) لقد كان كتاب الصدق ، هو الكتاب الوحيد إلى عهد قريب جداً . ثم اكتشف الأستاذ آربرى مجموعة من رسائل الحرار ، ضمن مخطوط يحتوى على كتب ورسائل صوفية . ولقد حقق الأستاذ الدكتور قاسم السامرائى مايخص الحراز فيها ، ونشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى . المجلد الخامس عشر سنة ٦٧ كتاب الصفاء ، وكتاب الضياء ، وكتاب الكشف والبيان ؛ وكتاب الفرع ، وكتاب الحقائق فجزاه الله خير الجزاء . وقد وقعت هذه الكتب فيما يقرب من أربعين صحيفة .

(٢) كتب الإمام الأكبر رضى الله عنه بعد ذلك مقدمة مختصرة للطبعة الثالثة من الكتاب ، نقتطف منها ما يلى .

إن المسلمين الأول علموا الحقيقة البدهية . وهى : أن المجتمعات ، لاتقوم إلا على الأخلاق .

لقد كان واضحاً فى أذهانهم ، ماقاله شوقى رحمه الله :

....

=وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لقد كتبوا – رضوان الله عليهم – كثيراً فى الأخلاق ، ليهيئوا بذلك الأمة الإسلامية ، لتكون فى مراكز القيادة فى هذا الجانب .

وأخذ الكتّاب ينشرون الفكرة الإسلامية ، من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وسلوك الرسول ﷺ ومن تبعه من الراشدين المهديين .

وبعض الكاتبين التزم فى ذلك القرآن والسنة فحسب ، كما فعل الإمام النووى رضوان الله عليه فى كتابه النفيس «رياض الصالحين» وكما فعل الإمام الحافظ المنذرى فى كتابه المبارك «الترغيب والترهيب»

وبعض الكاتبين اتخذ القرآن والسنة أساساً ، ثم استفاض فى ذكر آراء الأسلاف السابقين ، وذكر حكايات عنهم : تهدى الإنسان إلى الرشد ، وتقوده إلى الصراط المستقيم .

من ذلك : الكتاب الخالد «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى .

وكل كتب الأحاديث ، وكل كتب تفسير القرآن ، إنما هى على وجه العموم – تربية للشخص تسير به إلى المثل الأعلى .

وهذا المثل الأعلى ، إنما يتمثل فى معنى كلمة «الإسلام» أى العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى ، والخضوع المطلق له وحده .

وإنما يتمثل ذلك فى قوله تعالى لرسوله الكريم :

(قل إنَّ صَلاَتِى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومَمَاتِى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين) .

إن الهجرة إلى الله : أسساً وبواعث ، وغاية وأهدافاً وكيفية ، يضمها كتاب الله وسنة رسوله .

وماتضمنه كتاب الله وسنة رسوله معصوم :

(لايأْتِيه البَاطِلُ مِنْ بَينَ يَدَيْهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ) .

ومن أجل ذلك : تشبث أسلافنا – رضوان الله عليهم – بهذه العصمة ، وكتبوا فى ذلك ، =

....

= متخذين القرآن ، وسلوك رسول الله ﷺ وأقواله : القدوة الحسنة ، والأسوة الكريمة .

واهتدى بهديهم مالاحصر له من الأفراد .

وخلف من بعدهم خلوف : اتجهوا — فى عصرنا الحاضر — إلى «أوربا» يستمدون منها السلوك . وتمزقت بهم الطرق ، وتشتت بهم الأهواء ، وفسد بهم وبآرائهم الكثير .

وكان لابد من العودة إلى النهج السلفى

ومن هنا ، كان حرصنا على نشر هذا الكتاب النفيس «كتاب الصدق» .

والله نرجو أن يهدى له ، وأن يهدى به ، وأن يجعله من اللبنات التى يتكون منها الجو الأخلاقى الذى يعتصم بالله سبحانه وتعالى :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صراطٍ مُسْتَقِيم) .

كتابُ الصِّدْق

لأبي سعيد الخرَّاز

سَـبيـل النجَـاة

الإخلاص

الصبر

الصدق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال الشيخ الإمام العارف : أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز قدّس الله روحه ، ونور ضريحه :

قلت لبعض العلماء : أخبرنى عن الصّدق ، كيف هو ؟ ومامعناه ؟ وكيف العمل به ، حتى أعرفه ؟

فقال : الصّدق اسم للمعانى كلها ، وهو داخل فيها .

أتحبّ أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله أم أشرح لك العلم والعمل بالأصول التى بها تقوم الفروع ؟

قلت : أريد الأمرين جميعاً ؛ ليكون ذلك علماً لى ، وفقهاً ، ونصرة .

فقال : وفقت ، إن شاء الله !

اعلم : أنّه لابدّ للمريد – المحقّق فى إيمانه ، والمطالب لسلوك سبيل النجاة – من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها ، فبذلك يقوى إيمانه ، وتقوم حقائقه ، وتثبت فروعه ، فتصفو ، عند ذلك ، الأعمال وتخلص ، إن شاء الله :

فأوّلها الإخلاص :

لقول الله ، عزّ وجل : (فاعبد الله مخلصاً لهُ الدين ألا لله الدينُ الخالص) [1] .

وقال تعالى : (فادعُوا الله مخلصِين له الدين) [2]

وقال لمحمد ﷺ : (قل : إنى أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين) [3]

وقال : (قُل الله أعبُدُ مخلصاً له دينى) [4]

وقال جل ذكره : (واذكر فى الكتاب موسى ، إنه كان مخلصاً ، [5] وكان رسولاً نبياً) .

ونحو هذا فى القرآن كثير ، وفى هذا مقنع .

ثم الصدق :

لقول الله ، عزّ وجلّ : (يَـأَيُّها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين) [6]

وقال تعالى : (فلو صدقُوا الله لكان خيراً لهم) [7] .

---

(١) سورة الزمر . ٢ ، ٣ .

(٢) سورة غافر : ١٤ .

(٣) سورة الزمر : ١١ .

(٤) سورة الزمر : ١٤ .

(٥) سورة مريم : ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللام .

(٦) سورة التوبة : ١١٩ .

(٧) سورة محمد عليه السلام : ٢١ .

وقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[1]

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد)[2]

وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم)[3]

وقال تعالى : (والصادقين والصادقات)[4]

وهذا كثير فى القرآن .

ثم الصبر :

لقول الله عز وجل : (يَـأَيُّها الذين آمنوا اصبرُوا وصابرُوا)[5]

وقال تعالى : (ولئن صبرتُم لهو خير للصابرين)[6]

وقال تعالى : (واصبر وماصبرُك إلا بالله) [7] .

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[8]

وقال تعالى : (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً)[9]

---

(١) سورةالأحزاب : ٢٣ .

(٢) سورة مريم · ٥٤ .

(٣) سورة الأحزاب · ٨

(٤) سورة الأحزاب من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل . ١٢٦ .

(٧) سورة النحل . ١٢٧ .

(٨) سورة الطور . ٤٨ .

(٩) سورة المزمل · ١٠ .

وقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداةِ والعشِّي ، يريدُون وجهه)[1]

وقال تعالى : (واصبرُوا ، إن الله مع الصَّابرين)

وقال تعالى : (وبشر الصَّابرين)[2] .

فجعل لهم الكرامة بالبشرى .

وهذا كثير مؤكد فى القرآن .

* * *

وهذه ثلاثتها[3] أقسام لمعان مختلفة ، وهى داخلة فى جميع الأعمال .

ولاتتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم .

ولايتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض ، فمتى فقد أحدها تعطلت الأخر .

قال : فالإخلاص لايتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه .

والصبر لايتم إلا بالصدق فيه ، والإخلاص فيه .

والصدق لايتم إلا بالصبر عليه ، والإخلاص فيه .

الإخلاص :

فأول الأعمال : هو الإخلاص .

---

(١) سورة الكهف : ٢٨

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٥٥

(٣) الإخلاص ، والصدق ، والصبر.

فالفرض الواجب : أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقرّ وتشهد ألاّ إلهَ إلا الله وحده لاشريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والخالق ، والبارئ ، والمصوّر ، والرزّاق ، والمحيي ، والمميت ، الذى إليه ترجع الأمور ، وأن محمداً عبدُه ، ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق ، وبالحق أدّوا الرسالة ، وبالغوا[1] فى النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، والمردَّ إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويُعذب من يشاء .

ويكون ذلك عَقدَك[2] ظاهراً على لسانك ، بلا شك ولاريب ، ساكناً[3] قلبك مطمئناً إلى ماصدقت به وأقررت .

وكذلك لايعارضك — فى كل ماجاء من عند الله على لسان نبيه ، ﷺ — شكٌّ فى كل ماذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبى ، ﷺ[4] ، وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذى كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعون من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعاً للجماعة ، مخلصاً فى ذلك لله وحده ، لاتريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك ، وإيمانك ، وتوحيدك .

---

(١) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب ما به من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وهو الذى أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرْجو لقاء ربه فلْيَعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[1]

فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لايريدُ بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى ، بجميع أمره ، لايحب مدح أحد ولاثناءه ، ولايفرح بعمله – إذا اطَّلع عليه المخلوقون – فإن عارضه [2] من ذلك شىء اتقاه[3] بالسرعة والكراهية ، ولم يكن[4] إليه ، لكن إذا أثنى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه[5] حين وفَّقه لخير رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريرته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ؛ وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

« السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) ظهر له .

(٣) حفظ نفسه منها .

(٤) يركن ويطمئن .

(٥) ستره عليه رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

السريرة والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل »

فالواجب على العبد أن يخفى عمله [1] جهده حتى لا يطلع عليه إلا الله تعالى . فذلك أبلغ فى رضا الله ، عز وجل . وأعظم فى مضاعفة الثواب ، وأقرب إلى السلامة . وأوهن لكيد العدو . وأبعد من الآفات .

وروى عن سفيان الثورى ، رحمه الله ، أنه قال : «ما أعبأ بما يظهر من عملى »

ويروى فى الحديث :

«أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً» [2] .

---

(١) قوله : أن يخفى عمله . أى الذى لم يطلب الشرع فيه الظهور ، لأن الشعائر كلها كالحج والعمرة والجماعة فى الصلوات و . . إلخ . مطلوب فيها الظهور شرعاً .

وأما غير الشعائر : كالصدقات وعمل البر أيًّا كان ، فالأمر فيه على مايأتى : إن كان مرشداً ، أو قصد الحث عليه تعين إظهاره ليؤدى المطلوب ، كما كان فى حديث « من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

فإظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب .

لكن محل ذلك إذا آنس من قلبه اتجاهاً إلى الله وحده . ولم يخش تمرد الأمارة بالسوء ، وإليك ميزاناً لمعرفة ذلك الاتجاه وهو :

إن كان المريد أشد فرحاً وتلذذاً به فى خلوته فعله ، وإلا فلا .

(٢) وذلك للأعمال التى لم يطلب الشرع فيها الإظهار .

ويروى : «إن العبد ليعمل العمل فى السر ، فيَدَعه الشيطان عشرين سنة ، ثم يدعوه إلى أن يظهره ، ويذكره ، فيُنقَلَ من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فينقص من ثواب العمل وفضله ، ثم لايزال يذكره بذكره أعماله ، حتى يذكرها للناس ، ويتحلى[1] اطلاعهم عليها ، ويسكن[2] إلى ثنائهم فيصير رثاء»[3].

فهذه الأمور : ضدّ الإخلاص ، ومادكرنا : فهو من جملة الإخلاص الذى لابد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم جهله ، وتبقى الزيادة فى الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لايرجو إلا الله ، ولايخاف إلا الله ، ولايتزين إلا لله ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يبالى ، إذا وافق الأمر الذى فيه محبة الله ورضاه ، مَن سَخِطه .

وما بقى من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفى هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق !

---

(١) يجد لذة فى إطلاعهم عليها .

(٢) يرتاح ويركن

(٣) رياء

الصبر :

والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة فهى ثلاث :

فأولها : الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، فى الشدة والرخاء ، والعافية .والبلاء ، طوعاً وكرهاً .

ثم الصبر الثانى : هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، ومنع النفس من كل مامالت إليه بهواها مماليس لله تعالى ، فيه رضاً ، طوعاً وكرهاً .

وهذان صبران فى موطنين : هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .

ثم الصبر الثالث : هو الصبر على النوافل ، وأعمال البر ، مما يقرب العبد إلى الله تعالى ، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذى رجاه من ثواب الله ، عز وجل .

وهكذا يروى ، أن النبى ، ﷺ فيما رواه عن ربه ، عز وجل قال : « ماتقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه »(١)

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال . قال رسوا الله ﷺ . « إن الله تعالى قال . من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » رواه البخارى .

والصبر الرابع : (١) هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعاك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله ، جل ذكره ، إلى العباد ، ولايجوز لهم رده . فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله ، تعالى ، أمره !

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لايسعهم جهله ، ولابد لهم منه .

وبقى شرح حقائق الصبر وغايته ، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه .

قلت : فالصبر فى نفسه ، ماهو وما موجوده فى القلب ؟

قال : الصبر هو احتمال مكروه النفس .

وموجوده : إذا وقع بالنفس ماتكرهه تجرّعت ذلك ، وأنفت الجزع ، وتركت البث والشكوى ، وكتمت مانزل بها .

لأنه يروى فى الحديث : «من بثّ (٢) فقد شكا»

ألم تسمع الله ، تعالى ، يقول : (والكاظمين (٣) الغيظ والعافين

=وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : «إذا تقرب العبد إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة .» رواه البخارى .

(١) هو الصبر الباطن .

(٢) أذاع ونشر سبب الضيق الذى ألم به .

(٣) الذين يخفون غيظهم فلا يظهرونه .

عن الناس) (١)

أفلا ترى أنه كظم ما كَرِهَ ، وشق على نفسه احتماله ، فصار صابراً ؟ فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه (٢) ، ولم يعف عمن أساء إليه : خرج من حدّ الصبر على هذا القياس .

قلت : فبماذا يَقوى الصابرُ على الصبر ، وبماذا يتم له ؟

قال : يروى فى الحديث :

«إن الصبر عن المكاره ، من حسن اليقين» .

ويروى :

«إن الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله» (٣)

وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى ، وصدّق قوله فى الذى وعده وتواعده ، قامت فى قلبه الرغبةُ فى ثواب الله تعالى ، الذى وعده ، ولزمت قلبَه الخشيةُ من عقاب الله الذى تواعده ، وصحت عند ذلك رغبته ، وقامت عزيمته فى طلب النجاة مما يخافه ، وهاجت آماله فى الظفر بالذى يرجوه ، فجدّ (٤) عند ذلك فى الطلب والهرب ، فسكن الخوف والرجاء قلبَه ! فركب عند ذلك مطية الصبر ، وتجرّع مرارته عند

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣٤ .

(٢) قابل الإساءة بالإساءة .

(٣) أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب .

(٤) اجتهد .

نزوله ، ومضى فى إنفاذ العزائم ، وحذر من نقصها ، فوقع عليه اسم الصبر .

الصدق :

والصدق اسم لمعان كثيرة :

فأول الصدق هو صدق العبد فى الإنابة [1] إلى الله تعالى ، بالتوبة النصوح .

لقول الله عز وجل : ﴿يـٰأَيُّها الذين آمنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصوحاً﴾ [2] .
وقال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جميعاً أَيُّها المؤْمِنُونَ لَعَلَّكم تفلحُونَ﴾ [3] .
وقال تعالى : ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ علَى النَّبىِّ والْمُهاجِرينَ والأَنْصَارِ﴾ [4] .

فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط فى أمر الله تعالى ، ونهيه ، والعزيمةُ على ترك العود فى شىء مما يَكْرَه اللهُ عز وجل ، ودوام الاستغفار وردّ كل مظلمة للعباد من مالهم ؛ والاعتراف لله ، تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألا تكون مصححاً ؛ والخوف

---

(١) أناب إلى الله تعالى : أقبل عليه وتاب .
(٢) سورة التحريم . ٨ .
(٣) سورة النور : ٣١ .
(٤) سورة التوبة : ١١٧ .

ألا تقبل توبتك [1] ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى ، على بعض مايكره فمقتك .

وهكذا يروى عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : مايؤمّنّى أن يكون قد رآنى على بعض ما يكره ، فقال : إعمل ماشئت فلا غفرت ؟

ويروى عنه أيضاً أنه قال : أخاف أن يطرحنى فى النار ولايبالى .

---

(١) إن المؤلف – رضوان الله عليه – يحاول ما أمكن أن يوقظ الضمير الدينى فى قوة ، وأن يهز الشعور الروحى هزة تنبه من غفلته . وكلامه متجه إلى من شاب توبته شىء من التردد . ولعل الواجب شرعاً : أن يوقن قبول الله لتوبته ، إذا تاب توبة نصوحاً بشروطها ، لأن فى توبة العبد : طلب الغفران من الله تعالى ، وقد جاء :

« ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة . » وجاء : عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدى بى » أو كما قال .

والمؤمن لاييئس من روح الله ولايقنط ، كما جاء فى الكتاب الكريم ، وجاء فى الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى جاء إلى الله بقراب الأرض ذنوباً ، ولعل الأنسب أن يقال :

إن التوبة لطف من الله تعالى ، ألذى أيقظ قلبه لتوبته . لأن المعصية تورثه القسوة ، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية ، فيستمر إلى أن يموت كافراً ولايأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولاً ، وأن له أن يتوب ثانياً . وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين : يزين لهم التوبة بعد المعصية ، وقد غفلوا عما ذكر من يقظة القلب قبل المعصية ، وغفلته بعدها .

نعم : عليه أن يذكر شبح المعصية ، وأنها تؤدى به ، لولا لطف الله الذى نبهه وألهمه التوبة ، وأنه لايضمن ذلك بعد أية معصية ، فيستمر فى حذر من كيد الشيطان ، إنه عدو مضل مبين .

وبلغني أن بعض العلماء لقي بعض الناس فقال له : تبت ؟

قال : نعم .

قال : قُبلتَ ؟

قال : لا أدري

قال : اذهب فادر .

وقال : «يفني حزن كل ثكلى [1] وحزن التائب ما يفني ! »

ومن صدق التوبة : ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى ، والهرب مهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعوا إلى الله .

فهكذا قال الله عزّ وجلّ : ﴿الأخِلاَّءُ يَوْمِئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عدوٌّ إلا المتَّقينَ﴾ [2]

ومن صدق التوبة : خروج المأثم من القلب ، والحذر من خفايا التطلّع إلى ذكر شيء مما أنبت [3] إلى الله منه قال الله ، عزّ وجلّ :

---

(١) التي فقدت ابنها .

(٢) سورة الزخرف . ومنه قوله تعالى

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولا) وقوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) .

(٣) رجعت تبت .

﴿وذَرُوا ظاهِرَ الإثمِ وباطِنَهُ﴾[1]

واعلم أن المؤمن كلما صحّح ، وكثر علمه بالله تعالى ، دقّت عليه التوبة أبداً ، ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : «إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » ؟ [2]

فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وسكنه النور ، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفيٍّ الآفة ، ومايلزمه من القسوة : من الهمّة بالزلة قبل الفعل ، فيتوب عند ذلك .

---

(١) عقد القلب على المعصية – سورة الأنعام ١٢٠

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما . يغان على قلبي : يغشى عليه .

أبواب الصِدْق

في معرفة النفس .
في معرفة العدوّ .
في الورع .
في الحلال الصافي .
في الزهد .
في التوكل على الله .
في الخوف من الله .
في الحياء من الله .
في شكر الله .
في المحبة .
في الرضا .
في الشوق إلى الله .
في الأنس بالله .

باب
الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عزّ وجلّ : (يَـٰأَيُّها الذينَ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهدَاءَ لله وَلَوْ عَلى أنفُسِكُم أو الوالِدَيْنِ والأقْربينَ[1]) .

وقال تعالى فى قصة يوسف ، عليه السلام ، حين يذكر عنه : (وما أُبرِّئُ نَفْسِى إنّ النَّفْسَ لأمَّارة بالسُّوءِ إلا مارحِمَ ربِّى[2]) .

وقال تعالى : (وأما من خاف مقامَ ربهِ ونهى النَّفْسَ عنِ الهوىَ ، فإنَّ الجنَّة هىَ المأوى[3]) .

وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدولك : نفسك التى بين جنبيك ، ثم أهلك ، ثم ولدك ، ثم الأقرب فالأقرب[4] » .

ويرى عنه ﷺ أنه قال « نفس إن قبقبها[5] ونغمّتها[6] ذمته غداً عند الله » .

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ .
(٢) سورة يوسف : ٥٣ .
(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١
(٤) عداوة النفس لأنها أمارة بالسوء إلا مارحم ربى . وعداوة الأهل ، لعلها من ناحية الفتنة ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل ، وإن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم .
(٥) أطاعها فى شهوتها الجنسية
(٦) أجابها إلى ماتشتهى من الشراب والسماع .

قيل له : وماهى ؟

قال : « أنفسكم التى بين جنبيكم » .

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى : أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى ، وطلب مرضاته ، فإن أجابته حمد الله ، تعالى ، وأحسن إليها .

فهكذا يروى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنهم رأوه يوطئ[1] شيئاً يفترشه .

فقيل له : ما هذا ؟

قال : نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى .

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ، ورآها بطيئة ، منعها محبوبها من العيش ، وخالفها عندما تهوى ، وعاداها فى الله ولله ، وشكاها إلى الله ، حتى يصلحها له .

ولا يقيم على ذمّها مع الإحسان إليها ، وذكر عيوبها والذم لها ، وما لا يرضاه من فعلها ، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل .

وهكذا يروى عن بعض العلماء أنه قال :

« قد علمت أن من صلاح نفسى علمى بمفاسدها » .

وكفى بالمرء إثما أن يعرف من نفسه عيباً لا يصلحه ، وليس منتقلا من ذلك إلى توبة .

---

(١) يمهّد .

وقال بعض العلماء : إن كنت صادقاً فى ذمّك لنفسك : فإنّ ذمّك غيرك بما فيك فلا تغضب .

وإذا نازعتك نفسك إلى شىء من الشهوات ، أو شغل قلبك فى طلب شىء مما حرم عليك وحلى لك ، فاتهمها تهمة من يريد صلاحها ، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها ، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمن تقدمها .

فإن الذى نازعتك إليه : لا يخلو من أن يكون حراماً تستحق به السخط ، أو حلالا ، تستوجب به طول الوقوف على المساءلة إذا مضى التاركون للحرام إجلالا له وتعظيماً له ، ووقفوا عن الحلال للانكماش [1] والمبادرة .

فاعمل فى قطاع نفسك عن الحالين جميعاً ، فإنّ من فطم نفسه عن الدنيا ، كان رضاعه من الآخرة ، ومن اتخذ الآخرة أمًّا : أحبّ برّها والورود عليها .

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أمًّا ؛ وبرّوها ؛ وسعوا من أجلها ، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران ، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها .

واحذر التخلف عن السابقين ، وانظر فى خاصّة نفسك ، وحثّ على ذلك أصفياءك وبطائنك ، فإن السابقين شمروا وشدّوا المآزر ،

---

(١) لعل المقصود : للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنة .

وكشفوا عن الرءوس والسوق[1] ، فاغتنموا الصحة ، وبادروا فى النشاط ، ورعوا حقّ الله تعالى ، وحذروا أن يهتكوا ستراً مما نهاهم عنه . وتحبّبوا إليه برفض ماأباح لهم أخذه ، وتركوا الحرام تعبداً ، والحلال تقرّباً ، وألفوا السهر والظمأ ، وأنِسُوا إلى التبلّغ والاجتزاء باليسير .

باب
الصدق فى معرفة عدوك : إبليس

قال الله ، عزّ وجلّ : (إنَّ الشَّيطَانَ لَكمْ عدُوٌّ فاتخِذُوهُ عدُوًّا ، إنما يدعو حِزبهُ ليكُونوا من أصحابِ السَّعيرِ »[2] .

وقال ، جلّ وعزّ : (يابنى آدم لايَفتننَّكمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكمْ من الجنَّة)[3] .

وقال تعالى : (وزيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالهمْ ، فَصدَّهُمْ عن السَّبيلِ)[4] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « للملَك لِمَّة وللشيطان

---

(١) كناية عن الاجتهاد .

(٢) سورة فاطر : ٦

(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٤) سورة النمل من الآية : ٢٤ .

لِمّة : فلمة الملك : إيعاد بالخير ، ولمّة الشيطان : إيعاد بالشرّ » .

وقال فى خبر آخر : « إنّ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس [1] ، وإذا غفل وسوس » .

فاقطع مادّته بالعزيمة على مخالفة هواك ، وامنع نفسك من الإفراط والتشوف [2] ، فهما خير أعوانه عليك ، وبهما يقوى كيده ، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى ، فقم بهما على نفسك ، وراع قلبك وما يقع فيه ، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه ، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة ، ولا تماد على الخطرة [3] ، فتصير شهوة ، ثم تصير الشهوة همة [4] ، ثم تصير الهمة فعلاً .

واعلم أن عدوك إبليس لايغفل عنك فى سكوت ولا كلام ، ولا صلاة ولاصيام ، ولا بذل ولامنع ، ولاسفر ولاحضر ، ولاتفرد ولاخلطة ، ولافى توقر [5] ولاعجلة ، ولا فى نظر ولافى غض بصر ، ولافى كسل ولافى نشاط ، ولا فى ضحك ولا فى بكاء ، ولا فى إخفاء ولا فى إعلان ، ولا حزن ولا فرح ، ولا صحة ولاسقم ، ولا مسألة

---

(١) انقبض وانزوى .

(٢) التعلق بالآمال .

(٣) مايجرى فى القلب من تدبير أمره

(٤) أول العزيمة أو العزيمة ، والهم بالفتح وحذف الهاء كذلك ، ويحكى ابن فارس (الهم ماهممت به إذا أردته ولم تفعله) ولعله هنا يتطابق مع ماذكره ابن فارس .

(٥) اتزان ورزانة .

ولاجواب ، ولا علم ولاجهل ، ولابعد ولاقرب ، ولا حركة ولا سكون ، ولا توبة ولا إسرار .

ولن يألو جهداً فى توهين عزمك ، وفتور نيتك ، وتأخير توبتك ، ويسوِّف بك وقتاً إلى وقت ، ويأمرك بتعجيل مالا يضرك تأخيره ، يريد بذلك قطعك من الخير ، ثم يذكرك فى وقت شغلك بالبر والطاعة ، الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه .

وربما حبب إليك النقلة من بلد إلى بلد ، يوهمك أن غير البلد الذى أنت فيه أفضل ، ليشغل قلبك ، ويعطل مقامك بما يعقبُك الندم إذا أنت فعلته .

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عز وجل ، فإنه أمنع الحصون ، وأقوى الأركان ! فاجعل الله تعالى كهفك وملجأك ، واحذر عدوّك عند الغضب والحدة ، فإنك ، إن استقبلك فى هيج الغضب ، ذكر الله تعالى ، وعلمتَ أنه شاهدك ، أطفأت بمراقبته نيرانَ العزّ[1] وتوقد الحمية ، أجللت من قد علمت : أنه يراك من أن تحدث فى غضبك ما تستحق به غضبه ، فإن الشيطان يغنم منك هيج الغضب وحمية الشهوة .

وأما حذرك إياه عند الحدة ، فإنه يقال : إن الشيطان يقول : « إن

---

(١) القوة

لحديد من العباد لن نيئس منه ، ولو كان يحيي بدعائه الموتى ، لأنه تأتى عليه ساعة يحتد ، فنصير منه إلى مانريد »[1] .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

باب
الصدق فى الورع واستعمال التَّقيَّة

فالصدق فى الورع : هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور .

فهكذا يروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس »[2] .

قال ﷺ : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه »[3] .

(١) ولهذا ، لما ذهب رجل إلى النبى ﷺ ، فقال له : أوصنى قال : لاتغضب ، كرر ذلك ثلاثاً .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٣) وفى رواية أخرى : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات لايعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال ابن سيرين ، رحمة الله عليه : مافى دينى شىء أيسر من الورع . كل مااشتبه عليه تركته .

وقال الفضيل ، رحمه الله ، يقول الناس : الورع شديد ؛ دع مايريبك إلىمالا يريبك ، فخذ ماحل وطاب من الأشياء ، وابذل المجهود فى طلب الشىء الصافى من الحلال .

لأن الله عز وجل ، قال : «يٰأَيُّها الرُّسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً »[1] .

وقال النبى ﷺ ، لسعد ، رضى الله عنه : « إن أردت أن يجيب الله تعالى دعاءك ، فكل الحلال »[2] .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : « يارسول الله ، من المؤمن ؟ قال : من إذا أمسى نظر من أين قُرْصه »[3] .

---

(١) سورة المؤمنون ٠ ٥١ .

(٢) وفى حديث آخر : أن النبى ﷺ « ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء ، يقول : يارب ، يارب ، ومأكله حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له ؟ » .

(٣) قرصه : رغيفه . أى من أين أكله .

باب
الصدق فى الحلال الصافى ، إذا وجدته ، وكيف العمل به ؟

فالصدق فى الحلال – إذا وجدته – : أن تأخذ منه مالا بدّ منه على قدر معرفتك بنفسك ، وما يقيم مَيَلَها ، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع ، ولا تصبر معها إلى ماتهواه من السرف ، ولكن خذ مايقيمك بلا تقتير ولا سرف فى الطعام واللباس والمسكن ، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف .

فهكذا يروى : أنّ رجلاً قال لعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنه : « يا أبا الحسن ، صف لنا الدنيا فقال : حلالها حساب وحرامها عذاب أو عقاب » .

فإذا كان العبد ضعيفاً[1] ، ثمّ ملك الشىء الطيب ، حبسه على نفسه وعلى مَن يمون[2] ، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون ، إذا أخرجه لم يصبر ، وجزع ؛ فوقع فيما هو أردى منه ، فكان فى حبسه إياه

---

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله .

(٢) يعول .

مزرياً [1] ، على نفسه من ادّخاره ، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى ، والسكون إليه دون الشيء ، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه .

قلت : فكيف مَلَكَ الأنبياء ، عليهم السلام ، الأموالَ والضياعَ ، مثل داوُدَ ، وسليمانَ ، وإبراهيم ، وأيُّوب ، ونظرائِهم ، ويوسفَ عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعد ؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير ؟

اعلم أنّ الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم أمناءُ الله تعالى ، فى أرضه على سرّه وعلى أمره ونهيه وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاءُ له فى خلقه وبريته ، وهم الذين عَقَلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلى ماندبهم [2] ؟ فوافقوه فى محبته ، ونزلوا فى الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين على الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بآذانِ فهُومِهم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن ندبته [3] ، فسمعوا الله ، عزّ وجلّ ، يقول : (آمِنُوا بالله ورَسوله ، وأنفقوا مما جعلكمْ مسْتخْلفِينَ فِيهِ) [4] . ثم

---

(١) مسكراً على نفسه فعلها إذا اطمأنت إلى الشيء وعدمت الثقة بالله ، ويستمر فى إنكاره عليها حتى يقوى عزمه .

(٢) دعاهم .

(٣) دعوته

(٤) سورة الحديد ٧ .

قال : (ثُم جعلْنَاكم خلائِفَ فى الأرضِ ، مِنْ بَعْدِهِمْ ، لننْظُرَ كَيْفَ تعملونَ »[1] .

وقال تعالى :(لله مافى السَّموات ومافى الأرْضِ)[2] .

وقال تعالى : (ألا لهُ الخلقُ والأمرُ) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ماخولهم وملكهم ، فإنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين سمع :

(هَل أتى على الإنْسَانِ حِينٌ منَ الدّهْرِ[3] لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً)[4]

قال . ياليتها تمّت ؟ ! يعنى عمر ، قبل قراءة : (إنّا خلقنا الإنْسَانَ مِنْ نُطفةٍ أمشاج نبتليهِ) : فَهَمهمْ ، يقال فى التفسير : عجز فى التلاء عجزاً[5] .

ومعنى قول عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمّت » يعنى : لم يخلق ، حين سمع الله تعالى ، يقول : (لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً) .

---

(١) سورة يونس : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

(٣) وقت من الزمن .

(٤) سورة الدهر .

(٥) عجز عن مواصلة القراءة ، وهو تفسير لهمهم .

وذلك من معرفة عمر ، رضى الله عنه ، بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجّة لله تعالى عليهم ، عند تقصيرهم ، وما تواعدهم به ، إذا ضيعوا .

ويروى عن الحسن . رضى الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى ، إنما أهبط آدم ، عليه السلام ، إلى الدّنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له ، حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك – من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق – شيئاً من الدنيا فهو معتقد أنّ الشيء لله جلّ وعزّ ، لا له ، إلا هو من طريق حقّ ماخوّله(١) الله تعالى ، وهو مُبلى به حتى يقوم بالحقّ فيه ، لأنّ النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والضراء : هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه .

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله ، عزّ وجلّ : « الذِى خلقَ المَوْتَ والحياةَ ، لِيبْلوكُم »(٢) .

وقال : « ولنبلونَّكُم ، حتى نعلَم المجاهِدينَ مِنْكُم والصَّابِرِينَ ، ونبلوَ أخباركُم »(٣) .

---

(١) ماحوله ماأعطاه .

(٢) سورة الملك .

(٣) سورة القتال : ٣١ .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون ، من بعدهم ، الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة ، وخولهم . كانوا إلى الله ، جلّ وعزّ ، ساكنين ، لا إلى الشئ ، وكانوا خزّاناً لله ، جلّ ذكره ، فى الشيء الذى ملكهمْ ، ينفذونه فى حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذّذين بما مُلِّكوا ، ولا مشغولى القلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود عليهما السلام ، فى ملكه . وما أباحه الله تعالى من الكرامة ، حين يقول تعالى :

« هذا عطاؤنا ، فامنن أوامسك بغير حساب »[1] .

قال أهل التفسير : لا حساب عليك فى الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله ، عز وجل له .

فذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام : «كان يطعم الأضياف الحوارى[2] النقى ، ويطعم عياله الخشكار[3] ويأكل هو الشعير» .

وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل ، صلوات الله عليه : «كان لايأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف

---

(١) سورة ص : ٣٩ .

(٢) الحوارى . لباب البر وخالص الدقيق .

(٣) الخشكار : خشن الدقيق

فيطويها . وربما كان يمشى الفرسخ[1] ، أو أقل أو أكثر ، تلقياً للضيف » .

قال : « وكان أيوب النبى ، ﷺ ، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه »[2] .

وروى العلماء : أن يوسف ، عليه السلام : كان على خزائن الأرض ، فكان لايشبع ، فقيل له فى دلك ، فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجياع » .

ولقد روى أن سليمان ، عليه السلام : « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة ، فسكنت الريح ووضعته على الأرض .

فقال لها : مالكِ ؟

فقالت : إنما أمرنا أن نعطيك ماأطعت الله .

ففكر فى نفسه من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » .

ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه فى اليوم مرات ، من هذا وأشباهه ! ! » .

فالقوم : كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ماملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن

---

(١) الفرسخ . ثلاثة أميال .

(٢) حشية أن يكون قد حنث فى يمينه وشفقه عليه .

فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله تعالى ، للنبي ﷺ : (أولئك الذين هدى الله فبهداهُم اقتده [1]) .

وهذا النبي ، ﷺ : « بينما جبريل ، عليه السلام ، عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فيّ بأمر ، فجاء إلى النبي ﷺ ، بالسلام من عند الله عزّ وجلّ ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك ممالك عند الله شيئاً ، فلم يختر النبي ، ﷺ ، ذلك ، وقال : أجوع مرة وأشبع مرة » [2] .

وعدّ ذلك من الله ، عز وجل ، بلوى واختباراً ، ولم يره من الله تعالى ، اختياراً ، ولو كان من الله تعالى ، اختياراً : لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى : في الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها .

وبذلك أدبه الله تعالى ، حين قال تعالى : (ولا تمدَّن عينيكَ إلى ما

---

(١) سورة الأنعام . ٩٠

(٢) وجاء في الأحاديث . « خيرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاخترت . أن أكون عبداً رسولاً » وفي حديث آخر ، في دعاء النبي ﷺ « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين »

متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدُّنيا ، لنفتنهم فيه)[1] .

ويروى عنه ، ﷺ : « أنه لبس حلة لها علم فطرحها وقال : كادت تلهينى أعلامها – أو قال ألهتنى أعلامها – خذونى وأتونى بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة وإليكم نظرة » .

وكذلك روى : « أنه ، ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً فقال : ردوا الشراك الأول » .

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا السكون إلى الدنيا ، والتحلى بشىء منها .

ومثل هذا فى الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشىء . وهذا أصحاب محمد ، ﷺ ، حين حثهم على الصدقة ، جاء أبو بكر بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبى ، صلى الله عليه وسلم : ماخلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد[2] .

---

(١) سورة طه ، ١٣١ .

(٢) الترمذى قال : حسن صحيح .

أفلا ترى أبا بكر ، رضى الله عنه ، إنما كان سكوناً إلى الله تعالى ، لا إلى شيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ماعند الله عنده أسرّ ؟ !

فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً ، وقال : خلفت الله ورسوله .

ثم جاء عمر ، رضى الله عنه ، بنصف ماله ، فقال النبى ، ﷺ : ماخلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالى ولله عندى مزيد .

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندى .

ثم عثمان ، رضى الله عنه ، يجهز جيش العسرة كله بجميع مايحتاج إليه ، ويحفر بئر رومة (١) .

أفلا ترى أن القوم ، إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ !

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم ، يعدونه لله عزّ وجلّ .

وقد روى عن النبى ﷺ : أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة » .

أفلا ترى أنهم فى حياتهم : لم يضنوا بالشيء عن الله عز وجل ؟ !

وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله عز وجل ، كما كان فى أيديهم لله تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً .

---

(١) الترمذى والبخارى وغيرهما .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه .

وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ : أبوبكر ، رضي الله من حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم يتصنع وكان عليه كساء يخلله[1] . وكان يدعى : ذا الخلالين .

وهذا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين جاءته الدنيا راغمة ، من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من أدم ، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر .

وهذا عثمان ، رضي الله عنه ، كأنه واحد من عبيده ، في اللباس والزى ! ! ولقد روى عنه : أنه رؤى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له في ذلك ؛ فقال :

أردت أن أنظر نفسي : هل تأبى ؟

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟

وهذا على بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في الخلافة ، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان في كمه طول ، فتقدم إلى خراز[2] ، فأخذ الشفرة ، فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنةً ويسرةً !

وهذا الزبير ، رضي الله عنه ، يخلف حين مات ، من الدين مائتي

---

(١) يخيط مابه من خال وشق

(٢) خياط .

ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !

وهذا طلحة بن عبيد الله ، رضى الله عنه ، يعطى حلى أهله لمن سأله !

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله عز وجل ، حين أمرهم ، فقال : (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[1]) .

ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملكِ من الشبهات التى علم الله تعالى ، كيف هى ، ومن أين هى ، وكيف قدرها فى قلبه ، وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله ، عز وجل ، وما لا يحصى من عيبه ، فى تقلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟

حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغ مابلغ بالقوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغه مابلغ بالقوم .

وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الحديد ٨ .

باب
الصدق فى الزهد ، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا ، وسماها بأسماء لم يسمها أحد .

فقال تبارك وتعالى : (اعلموا أنما الحياة الدُّنيا : لعبٌ ، ولهوٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم . . . الآية)[1] .

أفلا يستحى من يعقل عن الله تعالى ، أن يراه ساكناً إلى اللهو ، واللعب ، فى دار الغرور .

قلت : الدنيا فى نفسها ، ماهى ؟

قال : اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا هى النفس وماهويت .

والحجة فى ذلك أن الله عز وجل ، قال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)[2] .

فهذه الأمور التى ذكرها الله عز وجل ، هى من هوى النفس ولذتها ، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها .

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران · ١٤

فإذا ترك العبد ماتهواه النفس ترك الدنيا .

ألا ترى أن العبد قد يكون فقيراً لاشىء له ، وهو يتمنى الدنيا ، ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها مايريد ، لتمتع بذلك ونال لذته ؟

فهو عند الله تعالى ، من الراغبين على قدر همته[1] ؛ إلا أنه أقل حساباً ممن نالها واستمتع بها .

فأول درجات الزهد : هو الزهد فى اتباع هوى النفس ، فإذا هانت على المرء نفسه لم يبال على أى حال أمسى وأصبح ، إذا وافق محبة الله تعالى ، عند ذلك ، على مخالفة نفسه ، ومنعها من محبوبها من الشهوات واللذات والراحات ، ومقارنة الأحباء والأخدان والأصحاب من أهل الغفلة ، ومن كان منهم غويًّا على ذلك الأمر الذى يريده العبد ، فإن آفة العبد : صحبة من يريد مايريد .

ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمنزل والنوم والكلام والنطق والاستماع ، وترك التمنى لشىء من الدنيا ، والحذر من تحليها .

لأن النبى ﷺ قال : « الدنيا خضرة حلوة » .

فيتوهم العبد فناءها ؛ فيقصر فيها أمله ، مع توقع الموت ، والتشوف[2] إلى الآخرة ، والشوق إلى النزول فى دار بقائها ، والعمل فى ذلك !

---

(١) عزيمته .

(٢) الطموح ببصره إليها (التطلع إليها) .

ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة ، ومن البدن بدوام الخدمة .

فهذا أول درجات الزهد .

وقال سفيان الثورى ، رحمه الله تعالى ، ووكيع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم : رحمهم الله تعالى : إن الزهد فى الدنيا قصر الآمال .

وهذا يدل على ماقالت الحكماء ، لأنه من قصر أمله : لم ينعم ؛ وكانت الغفلة منه بعيدة .

وقالت طائفة من الناس : « الزاهد فى الدنيا هو الراغب فى الآخرة ، الذى قد جعلها نصب عينيه ، كأنه يرى عقابها وثوابها ، فهو عازف عن الدنيا » .

وهكذا يروى أن النبى ﷺ ، قال لحارثة : «كيف أصبحت ياحارثة ؟ »

« قال : مؤمناً حقاً يارسول الله »

فقال النبى ﷺ ، : « وما حقيقة إيمانك ؟ »

قال : « عزفت نفسى عن الدنيا ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون .

فقال النبي ﷺ ، : « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم »[1] وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب .

والزهد فى الدنيا : يدق جدًّا ويخفى ، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد .

فمن نفى الرغبة فى الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شىء ، يرى غاية الزهد ومن توانى عن نفسه ولم يخالفها عند هواها ، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة .

قال بعض العلماء : الزاهد فى الدنيا حقاً لايذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن إذا أدبرت[2] .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى : لايكون زاهداً مستكمل الزهد ، أو يستوى عنده الحجارة والذهب ، ولا تستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ، فتحول الحجارة ذهباً ، فعندها تخرج قيمة الأشياء من قلبه .

وسمعته يقول : لم تستو الحجارة والذهب ، عند أحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، بعد رسول الله ، ﷺ ، إلا عند أبى بكر رضى الله عنه !

---

(١) البزاز من حديث أنس . والطبرانى من حديث الحارث بن مالك . وسندهما ضعيف .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) الحديد : ٢٣ .

قلت : فعلى أى معنى زَهِد الزاهدون ؟ !

قال : على معان شتى .

فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى ، وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .

فهكذا : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من جعل الهم[1] همًّا واحداً كفاه الله سائر هومه » .

وقال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وفى المال داء كبير .

قالوا : ياروح الله ، ماداؤه ؟

قال : لايعطى حقّه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

قال: يكون فيه فخر وخيلاء .

قالوا : فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله » .

ومنهم من زهد لخفة الظهر ، وسرعة الممر على الصراط ، إذا حُبس أصحاب الأثقال للسؤال .

فهكذا روى عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « عُرِض علىّ

---

(١) من جعل اتجاهه إلى الله فحسب ، أو إلى التقوى فحسب : كفاه الله جميع مشاكله الأخرى .

أصحابى ، ففقدتُ عبد الرحمن بنَ عوف - أو قال احتبس علىّ -
فقلتُ : مابطأك على ؟

قال : لم أزل أحاسب بِعدْل[1] مكثرة مالى ، حتى جرى منى من العرق مالو وردَتْ عليه سبعون من الإبل عطاشاً ، قد أكلت حِمْضاً[2] لصدرت[3] عنه رواء ! »

وروى عن النبى ﷺ من غير طريق أنه قال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، بين عباد الله » .

قال ﷺ : « مامن غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله تعالى ، كان جعل رزقه فى الدنيا قوتاً »[4] .

وروى أن أبو ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « مايسرنى : أن لى مثلَ أُحد ذهباً ، أنفقه فى سبيل الله تعالى ، تأتى على ثالثة ، يكون منه عندى شىء ، إلا دينار أرصده لدين » .

ومنهم : من زهد رغبة فى الجنة ، واشتياقاً إليها ، فسلى عن الدنيا

---

(١) العدل : الذى يعادل فى الوزن والقدر .

(٢) ست فيه ملوحة .

(٣) عادت ورجعت .

(٤) وفى ذلك أيضاً قال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وعن لذاتها ، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى ، الذى دعاه إليه ، ووصفه له عز وجل[1] .

وروى فى الحديث : أن الله جل ذكره يقول : « وأما الزاهدون فى الدنيا : فإنى أبيحهم الجنة » .

وقال بعض العلماء : لاتحسنُ قراءة إلا بزهد !

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا : هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ، ذَمَّ الدنيا ، ووضع من قدرها ، ولم يرضها داراً لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل ، أن يراهم راكنين إلى شىء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته[2] كرماً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور : هم أعقل العبيد ، وأرفعهم عند الله قدراً .

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى . (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الأنفال : ٦٧ .
ومن ذلك قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) النازعات .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) البينة : ٨ .

وهكذا روى عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : « ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم ! ! كيف غنموا سهر الحمق وصيامهم ؟ ! ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين : أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين »[1] .

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل .

وبالله التوفيق .

وروى عن بن عمر عبد العزيز ، رضى الله عنه : أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له : « ماهذا الصفار ياغلام ؟ » .

قال : أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين !

قال : لتصدقنى !

قال : أسقام وأمراض .

قال : لتخبرنى !

قال : ياأمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وأهل النار فى النار يتعاوون[2] .

---

(١) ومن ذلك قوله ﷺ : (الله الله فى أصحابى ، فو الله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : (أطت السماء وحق لها أن تئط ، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى) .

فقال له عمر : أنى لك هذا ياغلام ؟

قال : اتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً [١] .

إنه لما قصر بنا عن علم ماعملنا تركنا العمل مما علمنا ، ولو عملنا ببعض ماعملناه لورثنا علماً لا تقوم له أبداننا [٢] .

وروى عن أبي بكر الصديق ، رضى الله عنه : أنه استسقى ، فأتى بإناء فلما قربه إلى فمه وذاقه نحاه ، ثم بكى ، فقيل له فى ذلك .

فقال : « رأيت رسول الله ، ﷺ ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئاً يقع ، لا أرى شيئاً ، فقلت : يارسول الله ، أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئاً ! فقال : نعم ، تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها ، فقلت : إليك عنى [٣] . ! فقالت إن تنج منى فلن ينجو منى مَنْ بعدك ! »

قال أبو بكر رضى الله عنه : « فأخاف أن تكون أدركتنى » .

قال : « وكان فى الإناء الذى شرب أبوبكر ، رضى الله عنه ، منه : ماء وعسل ، فبكى إشفاقاً من ذلك » .

ويروى فى بعض الحديث : أن أصحاب محمد ، ﷺ : لم يأكلوا

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) والآيات كثيرة جدًّا فى هذا الباب

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ . « من عمل بماعلم ورثه الله علم مالم يعلم » .

(٣) عملاً بقوله تعالى : (ولا تمدن عيبيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك حير وأبقى » طه — ١٣١ .

تلذذاً ، ولم يلبسوا تنعماً[1]

وفى رواية : « أن أصحاب محمد ، ﷺ ، الذين اتسعوا فى الدنيا من بعده – حين فتحت عليهم من حلها – أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا ، وقالوا : نخاف أن تكون عُجِّلت لنا حسناتنا » .

فليتق الله عبد ، ولينصف من نفسه ، وليلزم منهاج من مضى ، وليعترف بالتقصير ، ويسأل الله الإقالة !

باب
الصدق فى التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »[2] .

وقال تعالى : (وعلى الله فَتَوَكَّلوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ)[3] .

وقال تعالى : (إِنَّ الله يُحبُّ المُتَوَكِّلِينَ)[4] .

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « يدخل الجنة من أمتى سبعون

---

(١) لأن ذلك شأن الكافرين ، واسمع قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » محمد – ١٢ .

(٢) آل عمران ١٢٢ .

(٣) المائدة ٢٣ .

(٤) آل عمران ١٥٩ .

ألفاً بغير حساب . وهم : لا يتطيرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون »[1] .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خِماصاً[2] وتروح بِطاناً »[3] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « العز والغنا يجولان فى طلب التوكل ، فإذا أصاباه أوطنا » .

فالتوكل — فى نفسه ووجوده فى القلب — : هو التصديق لله عز وجل ، والاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه فى كل ماضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق ، وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة ؛ فالله مالكه والقائم به ، لا يوصله إليه غيره ، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى ، والثقة به والعلم الخالص ، واليقين الثابت : أن يد الله المبسوطة إليه ، الموفية له من كل ماطلب ، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره ، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه !

---

(١) متفق عليه .

(٢) جياعاً .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن .

وهكذا روى عن الفضيل ، أنه قال : المتوكل على الله ، الواثق به : لا يتهمه ، ولا يخاف خذلانه .

وكذلك المتوكل على الله : إذا ملّكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده ، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان فى الذى يملك وإخوانه سواء .

وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة ، والقرابة ، وأهل التقوى ، ثم لعام المسلمين ، إذا رآهم على حال ضرورة غيّر نقص حالهم .

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : «ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوْثَقَ منك بما فى يدك ، وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بقيت عنك»[1] .

وقال بلال رضى الله عنه : «جئت إلى النبى ، ﷺ ومعى تمر فقال : ماهذا ؟

قلت : شىء ادخرته لإفطارك .

فقال : أنفق بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً ، أما خشيتَ

(١) الترمذى وابن ماجه عن أبى ذر

أن يكون له بخار فى جهنم ! ؟ »[1] .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : « إنى لست كأسماء – يعنى أختها – إن أسماء لاترفع شيئاً لغد ، وأنا أجمع الشىء إلى الشىء » .

وروى عن عائشة أيضاً رضى الله عنها : « أنها فرقت الدراهم ، وهى ترفع درعها ، فقالت لها خادمتها : ألا أبقيت درهماً للحم ؟ قالت : أفلا ذكرتنى ! » .

وروت عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ : أنه بات فى مرضه الذى قبض فيه شبيهاً بالقلق ، فلمّا أصبح قال : « مافعلت الذهبية ؟ – وكانت قيمتها ستة وخمسين درهماً – فقال : أخرجيها ، فما ظنّ محمّد بربه لو لقيه وهذه عنده ؟ ! » .

وروى عن مسروق رحمة الله عليه ، أنه قال : « أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم : ليس عندنا شىء ! »

قلت : فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب ؟

قال : بقطع أكثر الأسباب ، وتتخطَّى إلى المسبِّب ، فتسكن إليه[2] .

---

(١) البزاز وأبو يعلى والطبرانى بنحوه ، وأسانيده كلها ضعيفة . وقال الهيثمى : إسناده حسن .

(٢) وفى ذلك يقول الله ، تعالى : (أليس الله بكاف عبده) ؟ .

قلت : وهل يتداوى المتوكل ، أو يتعالج ؟

قال : الأمر فى هدا على معان ثلاثة : وقد خصّ تبارك وتعالى بترك الدواء والأسباب طائفة ، لقول النبى ﷺ : « يدخل الجنة من أمّتى سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، وعلى ربّهم يتوكلون ! »[1]

وقال النبى ﷺ . « ماتوكَّل من اكتوى واسترقى ! »[2]

وقال ﷺ : « من ردّته الطِّيَرَةُ فقد قارن الشرك »[3]

وقد أمر النبى ﷺ ، بالدواء والرق وأمر بالرقية ، وقطع لأبىَ بن كعب رضى الله عنه ، عرقاً .

فهذا على معانى قول المغيرة بن شعبة : لم يتوكل من اكتوى واسترقى من هؤلاء السبعين ألفاً ، الذين خَصَّهم النبى ﷺ ، كذلك فسّره بعض العلماء .

وما كان من سوى ذلك : فمباح لهم من سائر الناس ، وهو غير ناقص من توكلهم ، إذا كان معهم العلم والمعرفة ، وكان نظرهم إلى ربّ الداء والدواء ، إن شاء أن ينفع بالدواء ، وإن شُاء أن يضرّ .

وقد يطلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه ، وقد مات غير إنسان من الدواء وقطع العرقِ ، ولما طلب الشفاء ، وقد يرجو منفعته فى الشىء

---

(١) متفق عليه .

(٢) الترمذى بنحوه وحسنه ، والطبرانى واللفظ له .

(٣) أحمد والطبرانى بسند حسن عن ابن عمرو

فتكون فيه مضرّته . وقد يخاف الضرر من شيء ، فتكون فيه المنفعة .

فالصادق واثق متوكل على ربّه ، فإنما توكل عليه ، حين علم أنه حَسْبه من جميع خلقه . فلم يجد فقد شيء يمنعه الله ، لأن الله حسبه وهو بالِغُ أمْرِهِ .

قلت : فمن قال : أتوكَّل على الله لأكْفَى ؟

قال : لايخلو هذا القول من معنيين :

معنى : أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع ، لأنه يتحوّل عن شيء قد قدره الله عليه أن ينزل به ، بالتوكل .

فهذا قولنا وقول من أثبت القدر .

ومن قال : إنه يكفيه ما استكفاه لامحالة مثل قوله : لايأكلني السبع لتوكلي ، والذي يأتيني بطلب يأتيني بلا طلب ، فالتوكل يدفع عني إذا استكفيه كل مؤنة كنت أخافها ، فليس يعجبنا هذا القول ؛ لأن المتوكل قد يُكْفى وقد لا يكفى وتوكله غير ناقص .

قلت : مثل ماذا ؟ اشرح لى من ذلك شيئاً .

قال : نعم ، حيث ذَبحت يحيى بن زكرياء أمرأةٌ جبارة فى طشت ، ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وحين نُشِرَ زكرياء ، صلوات الله عليه ، بالمنشار ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، قتلوا ونيل منهم المكروه ، وهم

أقوى الخلْق يقيناً وأصدقه .

وهذا محمد ﷺ ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضى الله عنه ، فاختبئوا فيه ، وحين كسر المشركون رباعيّته ﷺ ، وأدموا وجهه ألم يكن متوكلاً ؟

أفلا ترى أنّ التوكل إنما هو الاعتماد على الله عزّ وجلّ ، والسكون إليه ثمّ التسليم بعد ذلك لأمره ، يفعلُ مايشاء ؟ !

وهكذا روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من يتوكّل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغُ أمْرِه » قال : قاض أمرَه : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

قال : أجلاً ومنتهى ينتهى إليه العبد ، وليس المتوكل بالذى يقول : « تقضى حاجتى » .

فهذا تفسير ابن مسعود رضى الله عنه : يخبر أن المتوكل على الله هو الذى يلجأ إلى الله تعالى ، ويعلم أنه لا يتم شيء إلا من قبل الله تعالى ، الذى يعطى ويمنع بقدرته . .

فالمتوكل على الله تعالى : لايستوحش فى حالة المنع ، ولا يستجلب بالمتوكل الإعطاء ؛ لأن الحرص لايعطى ولايمنع ، والله جل وعز مانع ومعطى .

وقد يُعْطَى العبدُ الشيء بلا توكل ، ويمنع وهو متوكل .

فقد يُرَى المجوسى ، والكافر ، والجاحد ، والفاجر ، المضيع لأمر الله

عز وجل ، الذى لاصدق له ولايقين ، فقد يرَى هازلون يكفرون ، وتقضى لهم الحوائج ، والمتوكل الصادق الموقن لاتقضى له حاجة ، حتى يموت ضراء وهزلاء !

وإنما التوكل : ترك السكون إلى أسباب الدنيا ، ونفى الطمع من المخلوقين ، والإياس منهم ، حين علم المتوكل : أنه صائر إلى المعلوم ، فرضى بالله تعالى ، وعلم أنه لايدرك بالتوكل تعجيل ما أخَّرَ الله تعالى ، ولا تأخير ما عجّل ، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع ، واستراح من عذاب الحرص ، وراض نفسه بأدب العلم والمعرفة وقال : ما قَدَّر سيكون ، وما يكون فهو آت .

وكذلك قال بعض الحكماء : انتقم من حرصك بالقنوع ، كما تنتقم من عدوّك بالقصاص .

وقال بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم : « دخلت على النبى ، ﷺ ، وفى البيت تمرة غابرة فقال : خذها ، لو لم تأتها لأتتك ! »

حدثنا محمّد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا مروان بن معاوية قال : حدثنا المعَلى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : « أهْدِىَ إلى النبى ﷺ طوائر فأطعم خادماً طائراً ، فلما كان من الغد أتيته به فقال : ألم أنهك أن تخبأ رزقاً لغد ؟ »

فهذا مالايسع الناس جهله من التوكل .

وغاية التوكل : أجل من ذلك .

باب
الصدق فى الخوف من الله عز وجل

قال الله تعالى : (وإِيَّاى فارْهَبُونِ)[1] (وَإِيَّاى فاتقُونِ)[2] .

وقال تعالى : (فَلاَ تَخْشَوُا النَّاس واْخْشَوْنِ) .

وقال تعالى : (يَخافُونَ ربَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)[3]

وقال تعالى : (كَذَلِكَ إِنمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ)

وقال تعالى : (وَلاَ تَعْمَلونَ مِنْ عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .[4]

وقال تعالى : (يَعْلُم مَا فى أنْفسِكُمْ فاحذَرُوهُ)

وقال النبى ﷺ : «خف الله كأنك تراه» .

قال ذلك لابن عباس رضى الله عنه .

فالذى يهيج الخوف حتى يسكن القلب : هو دوام المراقبة لله عز وجل ، فى السر والعلانية ؛ وذلك لعلمك بأن الله تعالى ، يراك ولا يخفى عليه شىء من حركاتك ظاهراً وباطناً .

---

(١) البقرة : ٤٠ و ٤١ .

(٢) النحل : ٥٠ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) يونس : ٦١ .

فعند ذلك يجل مقامه عليك فى كل حركة ظاهرة وباطنة ، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لايحبه ولايرضاه بالوقوف منك على همك ، إذا كان يعلم ما فى نفسك .

فمن ألزم قلبه فى الحركات كلها أن الله تعالى ، يراه رجع عن كل ما يكره بعون الله ، فطهر قلبه واستنار ، وسكنه الخوف ، ودام حذره من الله ؛ فكان مشفقاً فى جميع الأحوال ، وعظَّمَ أمر الله تعالى فى قلبه[1] ، فلم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقلّ وصغر من دون الله فى عينه ممن ضَيَّع أمر الله .

وذكر الخوف يطول ، وهذه الأصول التى من استعملها تؤديه إلى الحقائق .

فهذا ظاهر الخوف ومابقى من صفته أكثر.

(١) ومن ذلك : قوله تعالى ، حكاية عن خوف المؤمنين : ﴿قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين﴾ الطور : ٢٦ .

باب
الصدق فى الحياء من الله عز وجل

يروى عن النبى ﷺ أنه قال : « الحياء : من الإيمان »[1]

وروى عنه ﷺ أنه قال : « الحياء خير كله »[2] .

وقال ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وماحوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر المقابر والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا »[3]

وقال النبى ﷺ : « استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك »[4] .

وقال رجل يارسول الله : مانبدى من عوراتنا ومانذر ؟

قال : « استر عورتك إلا من أهلك وماملكت يمينك »

قال : فأحدنا يكون خالياً .

---

(١) مسلم والترمذى .

(٢) مسلم وأبو داوود .

(٣) أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .

(٤) هذا مثل تقريبى ، وإلا فالله أكبر ، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره ، ومع هذا فما أحد قدر الله حق قدره ، لأنه لايحيط بقدره حقيقية إلا هو ، والحديث رواه ابن عدى بنحوه .

قال : « فالله أحق أن يستحى منه » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول :

« إنى لأستحيي من ربى »

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله عز وجل من القوم ، لأن المستحيي من الله تعالى ، يرى اطلاع الله تعالى عليه . ومشاهدته له فى جميع الأحوال .

قلت : فما الذى يهيج الحياء ؟

قال : ثلاث خصال :

الأولى : تفكيرك فى دوام إحسان الله تعالى ، إليك مع تضييع الشكر منك ، ومع دوام إساءتك وتفريطك .

والثانية : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل فى منقلبك ومثواك .

والثالثة : ذكر لوقوفك بين يدى الله عز وجل ، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير .

قلت : فما الذى يُشَيِّد الحياء ويقويه ؟

قال : « الخوف لله عز وجل ، عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب ! فيفزع القلب ، ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى ، يرى مافيه فيثبت الحياء من الله[1] ، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى »

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذاهم مبصرون) الأعراف – ٢٠١

قلت : فالذى يولد الحياء ماهو ؟

قال : الفزع من أن يكون الله تعالى ، عنه معرضاً وله ماقتاً ، ولفعله غير راض .

قلت : فما الغالب على قلب المستحيي من ربه ؟

قال : إجلال رؤية ما يراه ، فحينئذ يهاب الله عز وجل ، ويستحيي منه .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : سمعت بعض المريدين سأل بعض أهل المعرفة .

قال : ما علامة هيبة الله فى قلب العارف بالله ؟

قال : إذا استوى عنده الأفعى والذباب .

قلت : فبم يضعف الحياء ؟

قال : بترك المحاسبة وترك الورع .

قلت : فكيف أحوال المستحيي فى نفسه ؟

قال : طول الخشوع ودوام الإخبات[1] ، وتنكس الرأس ، وانحصار الطرف ، وقلة النظر إلى السماء ، وكلال اللسان عن كثير من الكلام ، والفزع من التكشف ى الخلاء ، وترك العبث والضحك ، والحياء عند إتيان ما أباحه الله ، فكيف بذكر عارض ، مما نهى الله تعالى عنه ؟

(١) خضوع القلب .

والناس يتفاوتون فى الحياء على قدر قرب الله تعالى منهم وقربهم منه ،

باب
الصدق فى معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل : (وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِى آدَمَ وحملنَاهمْ فى البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهم مِنَ الطَّيِّباتِ وفضَّلْناهمْ علَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلقْنا تَفْضيلاً)[1]

وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لاتحْصُوها)[2] .

وقال : (اذْكُروا نِعْمَتِيَ التى أنْعَمتُ عَلَيْكُمْ)[3] .

فإذا أفاق العبد من الغفلة ، فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه ، وتكاملها قديماً وحديثاً .

فأما نعمه القديمة ؛ فذكره لك قبل أن تك شيئاً ، وماخصك به من توحيده ، والإيمان به ، والمعرفة له ، فأجرى باسمك القلم فى اللوح المحفوظ مسلماً ، ثم أهلك القرون السالفة ، وجعلك فى شرذمة من المؤمنين ناجية ، حتى أخرجك فى خير أمة ، وأكرم دين ، ومن أمة

---

(١) سورة الإسراء . ٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة فى الآيتين : ٤٠ ، ٤٧

حبيبه محمد ، ﷺ ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشريعة وباعدك من الزيغ والأهواء ، ثم رباك وكلأك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام .

فأغفلت نعمته ، وفرطت فى حفظ وصيته ، وركبت هواك من عمرك حيناً ، وفى كل ذاك لايكافئك بإساءتك ، بل يسترك ، ويحلم عنك ، وينظرك .

ثم عطف عليك بعد ذلك ، بعد ماكنت شروداً فأيقظك من الغفلة ، وعرّفك ما فاتك من حظك من طاعتك ، فوهب لك الإنابة إليه ، وأجلسك على طيّب مرضاته .

فوجب عليك الآن شكر بعد شكر ! فأى نعماه تحصى . وعلى أيها تشكر ؟

ولابد من معرفة الشكر ، ومباشرته .

والشكر على ثلاثة وجوه :

شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب : «فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لامن غيره»

وأما شكر اللسان : «فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه ، وذكر إحسانه»

وأما شكر البدن : «فلا تستعمل جارحة — أصحها الله تعالى وأحسن خلقها — فى معصية ، بل تطيع الله ، تعالى ، بها»

وكذلك كل ما خوّلك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على

طاعته ، ولم تحوله فى باطل ، ولم تنفقه فى سرف ، ثم تبذل لله عز وجل ذكره وعزّ جَدُّه الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .

وهكذا يروى عن النبى ﷺ : «أنه قام حتى تورمت قدماه ؟ فقيل لهُ : يارسول الله ما هذا التعب ؟ أليس قد غفر الله لك ؟ ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وقال الله عز وجل · (ٱعْمَلُوا آل دَاودَ شُكْرًا)[1]

وقال تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم)[2]

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غاية ، انقطع فنظر ، فإذا شكره نعمة من الله تعالى ، تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها ، إذ جعله من الشاكرين ، فعمل عند ذلك فى شكر الشكر ! ! ثم كاد يتحير ، تواترت عليه من الله تعالى الألطاف بالبر والكرامات .

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى ، عليه السلام ، ربه ، عز وجل ، قال : «يارب أمرتنى بالشكر على نعمتك ، وإنما شكرى إياك نعمة من نعمك» !

فأوحى الله إليه : «لقد علمتَ العلمَ ، إذ علمتَ أن ذاك منى فقد شكرتنى »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ذكر النعمة شكرٌ ما ، فدلت النعم على محبة المنعم !

---

(١) سورة سبأ من الآية ١٣ (٢) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

باب
الصدق فى المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى »[1] .

وقال الله ، عز وجل : ﴿ والذين آمنوا أشَدُّ حُبًّا لله ﴾[2]

وبلغنى أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى ، عليه السلام : « ياعيسى بحق أقول لك : إنى أحَبُّ إلى عبدى المؤمن من نفسه التى بين جنبيه » .

وبلغنا عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه : أن ناساً قالوا ، على عهد رسول الله ﷺ : « يارسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديداً » فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل ، عز وجل :

﴿ قل إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[3]

---

(١) الترمذى والحاكم عن ابن عباس بسند صحيح .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣١ . وذكر هذا القول عن الحسن بن كثير فى تفسيره .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ فى هديه ، وزهده وأخلاقه ، والتأسي به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل ، فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك .

وبلغنا أن موسى عليه السلام ، قال : «يارب أوصنى»

قال الله عز وجل : «أوصيك بى » .

قال : «يارب كيف توصينى بك ؟ »

قال : «لايعرض لك أمران ؟ أحدهما لى والآخر لنفسك ، إلا آثرت محبتى على هواك » .

فالمحب لله : قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه ، فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها ، وكذلك جوارحه : إنما هى وقف لخدمة من أحبه .

فهو غير ساه ولا لاه وإنما همه أن يُرضى من أحبه ، فقد بذل المجهود فى موافقته فى أداء فرائضه ، واجتناب مناهيه ، فهو متزين له بكل طاقته ، حذراً من أن يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .

وهكذا روى النبى ﷺ من غير طريق ، أنه قال : «يقول الله عز وجل : ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولايزال يتقرب

إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، إن دعانى فأجبته ، ونصح لى فنصحت له »[1]

فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى[2] مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل مالا يعينه على مذهبه[3]

قلت : فالمحبة على قدر النعم ؟

قال : المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم على قدر مايستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى — عند النعم ، وعند فقدها ، وعلى كل حال — حبًّا صحيحاً منعه أو أعطاه أو ابتلاه أو عافاه ؛ فالمحبة لازمة لقلبه ، على حالة واحدة ، فى العقد[4] ، ثم هى إلى الزيادة أقرب .

ولو كانت على قدر النعم ، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم ، فى وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذى وله[5] عقله بربه ، واشتغل برضاه فكان فى شكره لله وذكره حيران ، كأنه ليس نعمة على أحد إلا وهى عليه ، وهو مشغول بحبه لله عز وجل ، عن كل

---

(١) البخارى بنحوه وفيه هنا زيادات

(٢) التجارى : المسايرة : أى المتابعة

(٣) مذهبه : قصده وطريقته

(٤) العقد : العزم والنية .

(٥) وله عقله · أى ذهب ، والمعنى هنا · اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله

الخلق ، وقد أسْقَطت المحبة لله تعالى ، عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغي ، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة ، فكيف يذكر مالا يعنيه ؟ !

قال بعض الحكماء : من أعطى من المحبة شيئاً فلم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ، أنه قال : الحب أفضل من الخوف .

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثني زهير البصرى قال : لقيت شعوانة ، فقالت لى : ما أحسن طريقتك ! إلا أنك تنكر المَحبة !

قلت : ما أنكرها ؟

فقالت لى : أتحب ربك ؟

فقلت : نعم

قالت : فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه ؟ !

قلت : أنا أحبه لما أولانى وماندّانى [1] من معرفته ونعمه ، ولى ذنوب أخاف أن لا يحبنى لما كسبْت [2] !

فغشى عليها ، ثم أفاقت فقالت : زه !

---

(١) نداني الندى الجود ، والمعنى هنا : ما أسبغ على من معرفته ونعمه .

(٢) كسب الإثم . أى ارتكبه وتحمله .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : ما أحسن ماقال هذا الرجل ! هذا كلام صحيح ! !

قال أبو سعيد قدس الله روحه : قال رجل من رفعاء البدلاء : من يحب الله كثير الشأن فيمن يحبه الله .

وبالله التوفيق .

وفى هذا بلاغ لمن أعانه الله تعالى وسدده ، وما بقى من صفات المحبين أكثر !

باب
الصدق فى الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما)[1] .

قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى : ماشهد الله تعالى لهم بالإيمان ، حين لم يرضوا بحكم نبيه ، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل ؟ !

قلت : فما علامة الرضا فى القلب ، وماموجوده ؟ !

قال : سرور القلب بمر القضاء .

---

(١) سورة النساء ٦٥ . شجر وقع من نزاع حرجاً : ضيقا

وقال بعضهم : الرضا تلقى المصائب بالرجاء والبشر .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أنه قال : كنت خادم النبى ﷺ فما قال لى لشىء قط لما فعلت أو ألا فعلت ! إنما كان يقول : «كذا قضى . وكذا قدر »[1] .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : «ما أبالى على ما أصبحت وما أمسيتُ على ماأحبّ أو على ما أكره . لأنى لا أدرى أيُّهما[2] خير لى »

وقال عمر أيضاً : «لو أنّ الصبر والشكر بعيران لى ما أبالى على أيِّهما ركبت »

فهذا يدلك على الرضا من قول عمر رضى الله عنه ، لأن الصبر لا يكون إلا على ما يكره ، والشكر لا يكون إلا على ما يحب . فقال : لا أبالى أيهما وقع لى ، وذلك لاستواء الحالين عنده .

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . أنه قال : «حبذا المكروهات وايم الله ماهو إلا الغنى والفقر . وإن حق كل واحد منهما لواجب إن كان الغنى فإن فيه العطف . وإن كان الفقر فإن فيه الصبر »

---

(١) قضى وقدر : حكم بما سبق فى علمه واقتضاه

(٢) وفى ذلك يقول النبى ﷺ : (عجباً للمؤمن ، حال المؤمن كله خير له : إن أصابته نعماء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر) . أو كما قال .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى فى الأمور من اختيار .

وقال بعضهم : ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى ، كائناً ما كان وكان قد سقى السم ، فقيل له : تعالج ، فقال : لو علمت أن شفائى فى أن أمس أنفى أو أذنى مافعلت .

وقال النبى ﷺ لابن مسعود ، رضى الله عنه : «يابن أم عبد لايكثر همُّك[1] ، ما يقدَّرْ يكن ، وماترزق تأكله» .

وقال النبى ﷺ فى قصة طويلة لابن عباس رضى الله عنهما : «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، وإلا ففى الصبر على ماتكره : خير كبير»[2] .

أفلا ترى أنه ﷺ دعاه إلى أعلى الحالين .

وقال بعض الحكماء : إذا استتم فى العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء صح له الرضا .

وهو عندنا كما قال وإلا فهو مع الناس ، أوقات وخطرات[3] على قدر إيمانهم ، ثم يعودون إلى الصبر .

---

(١) همك : كثرة انشغال بالك . والحديث رواه البيهقى فى الشعب وفى القدر بسند ضعيف .

(٢) الترمذى من حديث ابن عباس ورواه أيضاً الطبرانى .

(٣) خطرات : ما يخطر فى القلب من تدبير

وقال بعضهم : الرضا قليل ، ومعول[1] المؤمن الصبر .

فقلت : اشرح لى قول الحكيم : الراضى يتلقى المصائب بالبشر والسرور .

قال : إن العبد لما صدق فى محبته ، وقعت بينه وبين الله تعالى ، المفاوضة والتسليم ، فزالت عن قلبه التهم ، وسكن إلى حسن اختيار من أحبه ، ونزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به ، فامتلأ قلبه فرحاً ونعيماً وسروراً ، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، فصار اسم البلوى عليه معلقاً ، فيُستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة ، فتارة يتنعم بعلمه به إذا علم أنه يراه فى البلوى ، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ، ولم يغفل عنه ، على عظم قدره أن يولى من أمره مافيه الصلاح ، فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه ، وتارة يئن إليه ؛ وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه[2] .

فهكذا قال جل ذكره : ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفسُ المطْمئنةُ ، ارْجِعى إلىَ رَبِّك رَاضِيةَ مَرْضِيَّةً ﴾[3] .

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل ، فى الدنيا قبل الآخرة ، فخرجوا من الرضا إلى الرضا .

---

(١) معول المؤمن . سلاح المؤمن .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ بعد أن شكا إليه ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس : (اللهم إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى) .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨

وهكذا قال عز وجل : (رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنهُ ، وأعَدَّ لَهمْ جنَّات) الآية .

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله في كتاب ، ومابقي من صفاتهم أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق في الشوق إلى الله عزّ وجلّ

روى عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك لذة العيش بعد الموت ، والنظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك » .

وروى عن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، أنه كان يقول : « أحب الموت اشتياقاً إلى ربي » .

وروى عن حذيفة رضي الله عنه ، أنه قال عند الموت : « حبيب جاء على فاقة[1] !! لا أفلح من ندم » .

وروى عن شهر بن حوشب رضي الله عنه ، أنه قال : « أخذت معاذ ، رضي الله عنه قرحة في حلقه ، فقال اخنق[2] خنقك ، فوعزتك إني أحبك » .

---

(١) الفاقة . شدة الحاجة إلى الشيء (٢) اخنق خنقك أي اقبض الروح

وكان على بن سهل المدائنى رحمه الله ، يقوم إذا هدأت[1] العيون ، فينادى بصوت له محزون : «يامن اشتغلت قلوبُ خلقه عنه بما يعقبهم عنه لقائه ندماً ، ويامن سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه[2] إليهم قبل معرفتهم به» ثم يبكى حتى تبكى لبكائه جيرته ، ثم ينادى : «ليت شعرى سيدى إلى متى تحبسنى[3] ! ابعثنى سيدى إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برح بى ، وطال على الانتظار» ثم يخر مغشياً عليه ، فلايزال كذلك حتى يحرك لصلاة الصبح .

وكان الحارث بن عمير رحمه الله ، يقول إذا أصبح : أصبحت ونفسى وقلبى مصر على حبك سيدى ، ومشتاق إلى لقائك ! فعجل بذلك قبل أن يأتينى سواد الليل ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة .

فالمشتاق إلى الله تعالى ، هو المتبرم[4] بالدنيا والبقاء فيها ، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل .

ومن علامته التوحش[5] من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد

---

(١) هدأت العيون : نامت .

(٢) أياديه : نعمه .

(٣) تحبسنى : تقضى ببقائى .

(٤) المتبرم الضجر .

(٥) التوحش : النفور .

بالوحدة ، ومن شأنه القلق والحنين والحزن والنحيب [١] والكمد [٢] والغصة [٣] المنكسرة فى الصدر بشدة الشغف [٤] والكلف [٥] والهذيان [٦] بذكر المحبوب ، والارتياح إليه ، والفكرة الصافية بهيجان الهمة [٧] ، وجولان [٨] الروح فى الغيوب ، لطلب اللقاء والبهت [٩] ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة ، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ، نعم ، ثم يعارضه الآن الخوف الذى هو الخوف أن لا يصل إلى محبوبه ، ويخاف أن يقطع به دونه ، ويحال بينه وبينه ، ويحجب [١٠] عنه ، ثم يخاف أن تحدث حادثة ، إذ كان فى دار البلوى ، فقد طالت عليه الأيام والليالى إلى أن يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذى يرضي مولاه .

---

(١) النحيب البكاء .
(٢) الكمد : الحزن المكتوم .
(٣) مايقف فى الحلق من طعام وشراب .
(٤) الشغف : الهوى الشديد .
(٥) الحب والولع .
(٦) الهذيان : الذى يخلط ويتكلم بمالا ينبغى .
(٧) هيجان الهمة : هدة العزيمة .
(٨) جولان الروح : طوفان الروح .
(٩) البهت : الدهش والتحير .
(١٠) يحجب : يمنع .

فهذا بعض مايمكن ذكره من صفات المشتاقين . ومابقى من نعتهم[1] أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق فى الأنس بالله ، تعالى ، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء : الأنس بالله . جل ثناؤه : أرق وأعذب من الشوق . لأن المشتاق : كان بينه وبين الله تعالى . مسافة خفيفة لعلة شوقه . والمستأنس أقرب من الله . عز وجل[2] .

وهكذا روى عن النبى ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام . فى صورة رجل . فسأله عن الإسلام والإيمان . ثم سأله عن الإحسان . فقال له النبى . ﷺ : «أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقال له : صدقت ! » .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال لابن عمر . رضى الله عنه : «اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]

---

(١) نعتهم : وصفهم .

(٢) وقد بين النبى ﷺ مظنة القرب ، فقال : «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» .

(٣) رواه الشيخان .

وإنما دله على قرب الله عز وجل ، وقيامه عليه ، ومن قرب الله تعالى ، تُستَخْرج حقائق الأمور فى كل مقام .

فمن كان مقامه الخوف ، أدركه من قرب الله تعالى — حين علم أنه يراه — الحذرُ ، والفَرَقُ[1] ، والخشية[2] .

ومن كان مقامه المحبة ، أدركه من حقائق قرب الله تعالى حين علم أنه يراه الفرح والسرور والنعيم والمسارعة فى طلب رضاه والقربة ليراه منافساً راغباً ، يريد القربة إليه ، والمبالغة فى محبته .

والصابر فى وقت بلواه ومصيبته ومايتحمله لسيده : مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله عز وجل يقول : (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقال تعالى : (وَٱصْبر لحكْم رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُنِناَ)[3]

سَهُل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته .

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القربة ، وذلك حين أيقنوا وهم الذين لايكادون يصلون ولايرجعون .

وأما العامة من الناس فإنهم عملوا على ماانتهى إليه من الأمر والنهى ، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يحققوا ! .

فمن صدق الأنس مايروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه : أنه

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الخشية : الخوف عن علم ، قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(٣) سورة الطور ٠ ٤٨

خطب إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ابنته ؛ وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ، ولم يرد عليه جواباً ، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك ، فقال له : «إنك كلمتنى فى الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا » .

فالمستأنس : كأنه ينظر إلى مااشتاق إليه المشتاق :

ويروى عن عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى ، أنه قال لأبى عاصم الشأمى رضى الله عنه ورحمه : أما تشتاق إلى الله تعالى ؟

قال : «لا » إنما تشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائب شاهداً فإلى مَنْ تَشْتاق ؟ » فقال عبد الواحد : سقط الشوق :

وروى عن داود الطائى ، رحمه الله تعالى — وكان من المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته — قال أيضاً : «إنما تشتاق الغائب » .

قال بعض العلماء رحمه الله : وإنما قالوا : هذا من حقائق الوجود لقرب الله عز وجل ، كأنهم معه ، إذ كان معهم شاهداً لايغيب ، وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين . ورحمة وراحة ، عجلها لهم فى الدنيا ، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله عز وجل من قربه ؟ !

فمن علامة المستأنس بالله تعالى ، وبقربه أن يكون واجداً[1] لذكر الله عز وجل فى قلبه ، واجداً لقربه منه لايفقده على كل حال ، وفى كل

---

(١) واجداً المقصود هنا الموجود ضد المعدوم .

وقت وكل موطن[1] ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبَه نورُ قرب الله تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء[2] .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، أنه قال : «مانظرت إلى شيء قط إلا كان الله تعالى أقربَ إليَّ منه » .

ومن صفات المستأنس : أن يكون متبرماً بالأهل والخليقة كلهم ، مستعذباً[3] للخلوة والوحدة ، ويكون فى البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه ، بل يجيف بابه[4] ويسبل ستره ويواحد قلبه ، ويألف مليكه ، فيكون به أنيساً ، وبمناجاته متنعماً ، ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته ، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه فى صلاته ، ويتثاقل تلقاء[5] الخلق ويملهم ، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غراماً[6] وخساراً ، فإذا جنه الليل[7] ، ونامت العيون وهدأت

---

(١) الموطن · الوطن (المكان) .

(٢) وفى الحديث القدسى الصحيح : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . . » متفق عليه

(٣) مستعذباً : واجداً لها حلاوة

(٤) يجيف بابه · يغلق بابه

(٥) تلقاء : تجاه (قباله)

(٦) غراماً : غُرماً

(٧) جنه الليل . ستره

الحركات ، وسكنت حواس الأشياء[1] ، خلاٍ عند ذلك بينه [2] ، فهاج شجوه[3] . وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، وتنجز الموعود من مأموله ، وماقد غذاه من فوائده وألطافه ، فظفر عند ذلك ببعض سؤله ، وقضى بعض أوطاره[4] .

وكذلك المستأنس : تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس ، فيستوى عنده العمران والخراب والقفار[5] ، والجماعة والوحدة ، وذلك الذى استولى عليه من قرب الله عز وجل ، وعذوبة ذكره ، ويغلب ماسواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكره ، ومابقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون فى كتاب ، إلا أن يجرى منه شىء عند المذاكرة مع أهله .

وبالله التوفيق .

---

(١) سكنت حواس الأشياء مبالغة فى السكون .

(٢) البث . المناجاة المثوثة بالزفرات

(٣) الشجوة الوجد .

(٤) قضى بعض أوطاره نال بعض بغيته ، ومصداق ذلك قوله تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » .

(٥) القفار : الجرداء

مقامات الصادقين

كل قوم على أقدارهم
امتحان المؤمن
علامة الواصلين
مقام القرب

كل قوم على أقدارهم

واعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه : أن الذى ذكرته لك ، إنما هو ظاهر الصدق والصبر ، والإخلاص الذى لايسع الناس جهله ، ولاترك العمل به ، خاصة المريدين من الناس ، الطالبين لسلوك سبيل النجاة .

ومن الناس : من لايكون له عند الله تعالى إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر ، فيفعل فى ذلك ويصدق فيه ، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله تعالى وثوابه ، وله عند الله خير كثير .

ومن الناس من يصدق فى هذه المقامات التى ذكرناها وأكثر ، فيؤديه ذلك فى عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع والعلم بالله والمقام الشريف ، فيصير إلى الروح والراحة ، والنعمة بمعرفة الله عز وجل ، والظفر بقرب الله تعالى ، والوصول إلى المنزلة الشريفة ، التى يدق[1] وصفها وشرحها .

وقال بعض العلماء بالله تعالى : إن الله يكرم أولياءه بكرامة لايطلع عليها العباد ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

---

(١) يدق . دق الأمر يدق إذا غمض وخفى معناه فلا يكاد يفهمه إلا الأذكياء

ألم تسمع لقول الله ، عز وجل : (فَلاَ تعْلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِي لهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[1] .

ويقال فى الحديث : «فيعطون مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وهكذا كل قوم على أقدارهم .

ومنهم من لاتنقضى كرامته من ثواب الله تعالى ، ومن النعيم فى الجنان ، ومنهم من لاتنقضى كرامته من الله تعالى ، والزيادة من بره والنظر إليه .

وقد صح الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : «إن أدنى[2] أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه ألفى عام يرى أقصاه[3] كما يرى أدناه»

ومنهم من ينظر إلى وجه الله جل وعز كل يوم مرتين .

ومحال أن يكون هؤلاء سواء ، أو كان علمهم فى الدنيا سواء .

قال جل ذكره : (وَلقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بعْضٍ)[4] .

فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به ، ثم على قدر هذا الأنس : تفاوتوا فى الدنيا والآخرة .

وبالله التوفيق .

---

(١) الإسراء : من الآية ٥٥ .

(٢) أدنى : أقل :

(٣) أقصى : أبعد .

(٤) السجدة : ١٧ .

امتحان المؤمن

قلت : فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه ، ويسقط عنه مؤنة الأعمال ، وأثقال الإخلاص ، ومؤنة الصبر ، ويكون عاملا بالصدق : فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولاتعب ؟

قال : نعم ، ألم تسمع الحديث الذى يروى : «إن الجنة حُفت بالمكاره وحُفت النار بالشهوات » .

ويروى فى خبر آخر : «إن الحق ثقيل مرىء[1] ، وإن الباطل خفيف وبىء[2] » .

والنفس مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها ، وحب الدعة[3] والراحة فيها .

أما الحق واتباعه والعمل به ، والصدق وأخلاقه ؛ فذلك كله هو خلاف محبوب النفس .

فإذا عقل العبد عن الله تعالى وفهم مادعاه إليه من العزوف[4] عن

---

(١) مرىء . طيب .

(٢) وبىء . كثير مرضه : (ضرره)

(٣) الدعة . الترك (حب الراحة) .

(٤) عزف عن الدار . انصرف عنها .

هذه الدار الفانية ، والرغبة فى الدار الباقية ، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكاره : من ركوب طريق الصدق ، وعزم على بذل المجهود ، وصبر لله تعالى ، وكابد[1] نفسه ، واستعان بالله تعالى ؛ فنظر الله تعالى إليه راغباً فيما لديه ، حريصاً على أن يرضيه ، وعاد عليه عند ذلك بلطفه وعونه ، فسهل عليه العسير مما استصعب من نفسه ، وأبدله بالمرارة حلاوة ، وبالثقل خفة ، وبالخشونة ليناً ودعة ، فسهل عليه قيام الليل ، وصارت المناجاة لله تعالى ، والخلوة بخدمته له نعيماً بعد شدة المكابدة ، وصار الصيام ، والظمأ فى المواجر[2] : خفيفاً عليه ، حين ذاق عذوبة مارجا من روح الله تعالى ، وحسن عاقبته .

وكذلك : تبدلت وسهلت : الأخلاق ، والأحوال ، عليه ، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله تعالى ، التماس رضاه عوضٌ مكانه من الخير ، فتغيرت عند ذلك أخلاقه ، وانتقل طبعه وهدأت نفسه وانتعش عقله ، وسكنه نور الحق فألفه ، ونفر عنه الهوى وطفئت ظلمته ، فصار عند ذلك الصدق وأخلاقه طبعاً له ، لايحسن غيره ، ولا يألف إلا إياه ، ولا يسكن إلى غيره ، واكتنفته[3] العصمة من ربه .

فضعف عند ذلك كيد عدوه ، وصار مغلوباً ، حين ماتت دواعيه

(١) كابد نفسه حمل نفسه المشقة .

(٢) الظمأ فى الهواجر : شدة العطش فى الحر الشديد .

(٣) اكتنفته العصمة . أحاطته من كل جانب .

من الباطل ، وكلّ[1] سلاحه ، بموت الهوى وانقياد النفس ، حين تخلقت بأخلاق المرحومين .

قال الله جل ذكره حين أخبر عن يوسف عليه السلام : (إنّ النفس لأمارةٌ[2] بالسوء إلا مارحم ربى)

فأنفس الأنبياء والصديقين عليهم السلام مرحومة ، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه ، فسقطت عند ذلك عن البعد معاناة الصدق ، وثقل العمل به ، فصار عاملا بالصدق الذى ذكرناه ، وأكثر بأضعاف كثيرة بلا مؤنة ، بل صار ذلك نعيما وغذاء ، إن تركه توحش من تركه وتفزع[3] من فقده ، فصار الصدق وأخلاقه صفة له ، لايحسن غيرها ، حتى كأنه لم يزل كذلك .

ومصداق ذلك فى الكتاب والسنة موجود .

قال الله تعالى : (والذين جاهدُوا فينا لنهدِينهم سبُلنا ، وإنَّ الله لمعَ المحسنينَ)[4] .

وقال عز وجل : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيستخْلِفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين مِن قبلهم ، وليمكنن لهمْ

---

(١) كل السيف . أى لم يعد يقطع .

(٢) لأمارة بالسوء : تهم بالسوء .

(٣) تفزع من فقده : كثر خوفه .

(٤) العنكبوت : ٦٩ .

دينهم الذى ارتضى لهم وليبدِّلنهُم مِن بعدِ خوفهم أمناً يعبدُونى لايشركونَ بى شيئاً)[1] .

وقال عز وجل : (ونريدُ أن نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض)[2]

وقال عز وجل : (وجعلنا منهم أئِمةً يهدُونَ بأمرنا ، لما صبروا)[3] أى عن الدنيا .

وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس ، وبذل الجهد[4] فى الصدق .

ثم إن المعونة من الله تأتى من بعد ذلك ، والحجة فى ذلك قائمة فى السنن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير سورة «طه» قال : معنى «طه» : يارجل ، بلسان الحبشية : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال : لتعنى به .

أفلا ترى أنه حين قام ﷺ لله عز وجل شكراً ، حتى تورمت قدماه شكراً لله تعالى ، فأمره بالهدوء ؟

---

(١) النور : ٥٥

(٢) القصص : ٥ .

(٣) السجدة : ٢٤

(٤) الجهد . الوسع والطاقة .

وقد روى : «أن النبى ﷺ كان يتعبد فى حبل حراء الشهر وأكثر»[1]

وكذلك يروى : «أن النبى ﷺ كان يحرس ويحفظ من عدوه ، حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) فنحى[2] الحرس تصديقاً لقول الله عز وجل حين ذكره له : أنه يعصمه ، فأيقن وسكن ﷺ .

وكذلك المؤمنون يأتيهم اليقين بعد الضعف ، وكذلك النبى ﷺ كان يخرج إلى الغار بالجبل الذى يقال له : ثور ويختبئ هو وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ثم يخرجان إلى المدينة هاربين فى السر.

وهذا إنما كان وقت البلوى من الله تعالى له ؛ إذ كان عليه السلام فى مقام الصبر والمجاهدة ، ثم من بعد ماصار إلى المدينة عليه السلام تغزوه قريش يوم وقعة أحد فتقتل أصحابه وتكسر رباعيته[3] عليه السلام ، ويدمى وجهه .

أفلا ترى أن الهوى[4] والمحنة لازمة له ، وللمؤمنين طالبة لهم ؟

ثم إنه ﷺ يخرج هو وأصحابه ، فيهل[5] ويسوق الهدى ، يريد

---

(١) رواه البخارى

(٢) نحى الحرس عزلهم

(٣) رباعيته السن التى بين الثنية والناب

(٤) مارعة النفس

(٥) يهل : يرفع صوته بالتلبية (لبيك اللهم لبيك . فى الحج)

العمرة[1] فتمنعه قريش من دخول مكة ، حتى اضطرب الناس ، فأحل[2] بالموضع الذى يسمى الحديبية ورجع ولم يدخل الحرم !!

ثم انظر الآن حين انقضت مدة البلاء وجاء النصر كيف دخل مكة ، ﷺ فقتل وأمن من شاء ، ثم بشر عندها بالمغفرة ، فأنزل الله عز وجل : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر)[3] الآية

وهذا موسى ﷺ ومنزلته عند الله ، فانظر إلى عظيم بلائه ، حين حملت به أمه ، كيف ذُبِحَت النساء ، وقتل الولدان ، فى طلب موسى ، عليه السلام ! فرجع بلاؤه على الخليقة .

ثم أخبر الله عز وجل عنه فقال : «فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ؟ »[4] .

وقال : (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال : ربِّ نجنى من القوم الظالمين ؟)[5]

ثم انظر أيها المريد ، الطالب للوصول إلى كرامة الله عز وجل ،

---

(١) العمرة : الحج الأصغر (وهو مأخوذ من الاستعمار أى الزيادة) .

(٢) أحل : خرج من إحرامه .

(٣) الفتح : ١ ، ٢

(٤) القصص يترقب . ينتظر

(٥) القصص ٢٠ ، ٢١ .

بالتوانى والتفريط[1] . ألم يبلغك أن موسى ، عليه السلام لم يصل إلى امرأته حتى رعى الغنم وخدم عشر سنين ، ثم أرسله الله تعالى وكلمه وأظهر برهانه ؟ !

فقال : (لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) ؟ !

فحين قال لهما : «لاتخافا» هل خافا ؟ ألم يجعل لهما آية فى عصا ، فظهرا[2] على كيد السحرة ، وهزما الجيوش ، ثم أداله[3] الله تعالى من أعدائه ، وأغرقهم أجمعين ؟ !

وهذا يوسف عليه السلام حين أخبر الله تعالى عنه : أنه يلقى فى الجب ثم يباع بثمن بخس : دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ، ثم لم يفارقه البلاء ، حتى فتن بامرأة العزيز وسجن السنين الكثيرة .

ثم انظر كيف أداله الله تعالى على إخوته ، ثم أخرجهم الله تعالى ، فأظهر برهانه وجعله على خزائن الأرض .

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله ، عز وجل ؛ عليهم السلام .

وفى هذا بلاغ لمن فهم عن الله عز وجل وعن العلماء الأدلاء[4] على الطريق إلى الله عز وجل ! !

---

(١) التوانى والتفريط . التوانى من توانى توانياً إذا لم يهتم ولم يحتفل بالأمر ، والتفريط من فرط تفريطاً إذا ضيعه .

(٢) ظهر : تغلبا .

(٣) أداله الله : جعل الغلبة له على عدوه .

(٤) الأدلاء . المرشدين الكاشفين

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما روى عنه : أنه ماسلك طريقاً قط إلا سلك الشيطان طريقاً غيرها ، وقال : «إن الشيطان ليفر من جبين عمر» وقد كان بالأمس من اللات والعزى فى أمور ترضى الشيطان !

فانظر كيف أخلص لله تعالى وصدق إن كان منه العدو وباطله .

وروى عن ثابت البنانى رحمة الله عليه أنه قال : «كابدت [1] القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة»

وقال بعض الحكماء : «إن القوم لم يزالوا يمضون [2] الصبر حتى صار عسلاً» .

وقال بعض الحكماء : «إن دون [3] كل بر عقبة ، فمن تجشم ركوبها أفضت [4] به إلى الراحة ، ومن هاله [5] ركوب العقبة فلم يرقها [6] بقى مكانه !»

قلت : فلا بد من هذه البلوى والاختبار؟

قال : لابد منه لكل عبد رفيع القدر عند الله عز وجل ، من أهل

---

(١) كابد . تحمل المشاق

(٢) يمضون الصبر : يتحملون ألمه .

(٣) دون كل بر · قبل كل بر

(٤) أفضت به انتهت به

(٥) هاله · أفزعه .

(٦) يرقها : يصعد إليها

المعرفة بالله ، عز وجل .

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ : « أنه سئل : من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ثم ، الأمثل ، فالأمثل »[1] .

يبتلى العبد حسب دينه : فإن كان فى إيمانه قوة شدد عليه البلاء ، وإن كان فى إيمانه ضعفٌ خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل ، بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء بقدر الكرامة التى أكرمهم بها ، حتى راضهم[2] بالبلاء وتفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل ، حتى نصروا .

والمؤمنون قامت لهم الرغبة فى ثواب الله عز وجل الذى وعدهم ، والرهبة من عقابه الذى به تواعدهم ، فصبروا لله تعالى وأخلصوا وصدقوا ، فشكر الله تعالى لهم ذلك ، وأظهر برهانهم على الخليقة ، فجعلهم علماء يقتدى بهم ، وأسكن اليقين قلوبهم .

ثم إن المؤمنين ، بعد ذلك على وجهين :

فنهم : من يبدؤه الله تعالى ، بالنعمة والمنة والموهبة ، فيهب له

---

(١) رواه الطبرانى بسند حسن . وله شواهد فى مسند أحمد ، والبخارى والترمذى ، وابن ماجه

(٢) راضهم بالبلاء أسلس قيادهم به . أى جعل أنفسهم راضية بالبلاء حتى صار الحلم طابعها والدماثة من سجاياها .

الإنابة ، ويحبب إليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويبدؤه بالمنن الكثيرة .

فإذا تمكن الروح فى قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة حمل عليه ، بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة نعم .

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها ، والنشاط فى البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد الصفاء ، وذلك لعلة البلوى والاختبار ، فتعتريه الفترة [1] .

فإن جاهد الآن وصبر واحتمل المكروه ؛ صار إلى حد الراحة والبلوغ ، وأضعف له البر ظاهراً وباطناً ! !

وهكذا يروى فى الحديث : « إن لكل شرة [2] فترة ، فمن كانت فترته إلى سنة [3] : فقد نجا ، وأن كانت فترته إلى بدعة [4] فقد هلك »

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « طوبى لمن مات فى النأنأة بدء الإسلام وشرته »

ويروى فى الحديث : « إن الله عز وجل ، يأمر جبريل عليه السلام ، فيقول : اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى ، فإن تأسف عليها فردها عليه وزده وإلا فدعه » !

---

(١) الفترة : انكسار الحدة وذهاب النشاط .

(٢) الشرة : الحدة .

(٣) السنة : الطريقة التى مات عنها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون .

(٤) البدعة : ماخالفت السنة . والحديث رواه البيهقى .

ويروى فى حديث آخر : « إن الله عز وجل ، يقول : إن أدنى[1] ما أصنع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا أن أنزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأن أدعه فى الدنيا حيران » .

وفى خبر آخر : إن العبد إذا ركن إلى الدنيا بعد العلم والمعرفة والعلم بالبصيرة ، يقول الله عز وجل ، لجبريل عليه السلام : « انزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأعطه من الدنيا مقصماً[2] يشتغل به عنى » .

أما العبد الثانى : فإنه يبدأ بالصدق والأعمال الصالحة وأخلاق الصدق ، ثم يعمل فى ذلك ماشاء الله عز وجل ، فتأتيه الكرامة بعد ذلك ، فيعطيه الله تعالى مالم يرجه ويحتسبه :

وهكذا عامة البدلاء : لاتأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذل الجهد ، وأكثر مالم يحتسبوا ما أتاهم الله تعالى به ، حين بدأهم الله عز وجل به .

ومنهم من اطلع على القوم وقيل له : إنك منهم ، فعمل بعد أن أخبر بذلك .

ومنهم من يعرف نفسه ولايعرف غيره .

ومنهم من يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم .

---

(١) أدنى : أقل .

(٢) مقصماً : مقطعاً .

فإن كنت أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق ، قد عملت فى الصدق ماذكرته لك من العلم ، وباشرت هذه المنازل ، ونزلت هذه المراحل ، وقطعت هذه الأسباب التى ذكرناها ، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة ، فأنت محاط بالعصمة ، وماض على سبيل الاستقامة والمحجة البيضاء ، التى توردك على الله عز وجل ، فهنيئاً لك ، وبارك الله فيك ، فأنت من أمرك على بصيرة .

فإن كنت قد باشرت الصدق وعملت فى كل مقام البر بقدر طاقتك وما أذن الله تعالى لك ، وعاينت الأمور ، فعسى أن يكون الله قد رآك ، وقد أبليت [1] فيما بينك وبينه ، عذراً لرغبتك فى التقرب إليه ، فصح إليه افتقارك ، حين علمت أنه لابد لك منه ، فألقيت كنفك [2] بين يديه ، فعسى أن يكون قد رآك فى بعض الأوقات إليه قاصداً راغباً ، بنية صحيحة وعزم صادق ، علم أنك لاتمل ولاتبرح من التعرض له دون بلوغ مناك ، فجادلك ببره ، وأعطاك بعض الأمل منه ، بل جذب قلبك إليه جذبة ، فأسكنه اليقين ، وأشرف به على الآخرة ، فسهل عليك عند ذلك العسير ، وألان لك من نفسك الصعب الذلول ، ثم اختصر بك الطريق إليه ، فقرَّ قرارُك وقامت حياتك وطاب عيشك .

فبذلك تعرف السيِّدَ الكرَيم الذى لاتنقصه المواهب ، ولاينفد

(١) أبليت : خرجت من الامتحان فائزاً منتصراً

(٢) كنفك : جانبك .

نائله ، لأنه البرُّ الرحيمُ ، الذى تَسَمى الشكور ! !

فيا عجباً كلَّ عجب ، وعجبَ كلِّ متعجّب ، ولا عجب ، إذ كان السيّد الكَريم يفعل مايريد .

ولكن موضع العجب يلزم العبيد من شكره لعبيده ، الأمر الذى بدأهم به ودلهم عليه ، واستعملهم به وحفظ عليهم ، ثم أحبهم عليه ونسبه إليهم فعلا ، ثم كتبه لهم فى المقبول ، ثم أثنى به عليهم بماوعدهم عليه الجزاء ! !

فهذا البر الآن من الكريم لانقف عليه العباد ، بل تحيرُ فيه العقول !

هيهات أيها السائل المريد ! ! أستيقظ من طول هذه الرقدة ، إنما هذه أسماء علقها عليهم أنهم فاعلون ، وأمور نسبها إليهم وما أظنها إلا له ، والتوفيق والصنعة منه فى صنعته التى تفرد بإنشائها وإبدائها لما شاء ، وهو الفعال لما يريد ، الذى يصيب برحمته من يشاء ! !

والعقلاء عن الله عز وجل ، من عباده يتلقون الأمور على هذا الوصف والشرح ، ويرجعون فى الأشياء إليه ، ويرونها منه سبحانه ، لأنه كان بدأها ، وعليه تمامها ، فهو القائم بها وإليه مرجعها ! ! !

و (لله الأمْر مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْدُ)

(أَلاَلَهُ الخلقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالِمينَ) .

وأما الضعفاء من الخلق ، فإنهم يَرَوْنَ لأنفسهم هاهنا فعلا هيهات إذا صدقوا وأخلصوا طلبوا الجزاء من الله عز وجل على ذلك ، وذلك

مبلغهم من العلم ، ولهم عند الله تعالى خير كبير.

وأذكر لك مقاماً آخر ، فاعرض نفسك ، وغيرك عليه ممن تراه من العبيد ، يشير إلى المعرفة والعلم ، والسكون إلى الله عز وجل.

فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله تعالى ، فأطلعك الله بصفاء اليقين ، على ماسبق لك عنده فى القديم ، حين أرادك قبل أن تريده وكان لك عالماً قبل أن تعرفه ، وذكرك قبل أن تذكره ، وأحبك قبل أن تحبه ، فهاج منك الآن الشكر له على أياديه[1] ، فألزمت قلبك المحبة على أياديه ، فآثرته وارتاحت روحك إليه ، فألفت قربه ، فصرت الآن إليه تأوى ، وفى قربه تسكن ، فهو لايغيب عنك ولاتفقده ذاهباً وجائياً وقائماً وقاعداً ، ويقظان وراقداً ، وعلى كل حال.

أما سمعتها مايذكر عن النبى ﷺ حين يقول :

«تنام عيناى ولاينام قلبى»[2]

وكذلك المؤمنون على أقدارهم.

فما أعظم شأنك[3] أيها العبد وأجل خطبك ، إذ كان السيّد الكَريم الكبير المتعال الغنى الحميد ، ذكرك ذكراً بعد ذكر فخصك ، فأجزل

---

(١) أياديه : نعمه.

(٢) بسند ضعيف ابن سعد عن الحسن مرسلاً.

(٣) شأنك : قدرك.

لك العطية ، إذ دَّلك على محبته فآثرته ، فكان هو بُغْيَتَك ومرادك[1] ، ومنتهى رغبتك وليس منك شيء تملكه للعباد ، ولكنها موهبة ، وهى أوّل أعلام الوصول إلى الراحة يكون الله مُراد العباد لاغيره .

ومن علامة ذلك : أن يكون هو الحافظ عليك ، ما استودع قلبَك من ذكره ومودته ، وأوجدك من قربه وتعطف عليك ببره ، فسامحك الآن ، فسقطت عنك حركاتُ الطلب للظفر أو التقرب ، إلا حركة تَهيِّج منك الآن شكراً له على أياديه ، وإيجاباً لحقه وأُلْفَةً[2] له غيره ، والتنعم بمناجاته ، ولذة خدمته ، وما أراد فيك من تعبده بمشيئته ، ليريك موضِعَ قُدْرته ، واختلاف أحكامِه عليك لتفقه عنه ، وأنت فى ذلك : واجدٌ لقُرْبه ، وغَيرُ متشاغل بحركاتك ، ولاطالب منه عليها جزاءً وثواباً ، كما أراد العبَّاد الزهاد ، ولكن تعمل لله تعالى حبًّا وكرماً ، لأنه خلقك كرماً واستعملتَ بأخلاق الكرماء .

وبالله التوفيق .

---

(١) مرادك : طلبتك واختيارك .

(٢) ألفة : محبة وائتلافاً ، أى التئاماً واجتماعاً .

علامة الواصلين

وهذا الآن جوابٌ لك آخر ، على مسألتك ، حين قُلْت : هل يصير العبد إلى حالٍ يفقد مُطالَبة الصِّدْقِ من نفسه ؟ وهى علامة الواصلين ، فافهمها .

أما علمت أيها المريد : أن الورع والزّهد والصبر والتوكل والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والمحبة والشوق والأنس والصِّدق فى المواطن والإخلاص فيها ، وكل خلقٍ حسن جميل : إنما هى منازل نزلها العمال لله ، عز وجل ، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها ، حتى وصلوا إلى المنى من قرْب سيدِهم ؟ !

فما أنت وذكرُ المنزل الذى نَزلْته حتى أوصلك إلى بُغْيتك ، إن كنت واصلا ظافراً ببعض حظك من مطلوبكَ ؟ فأنت كأنك مشاهدُه .

فعليه الآن فازْدَدْ إقبالا ، وإليه فأدِم النظر وأصغ إليه بالآذان الواعية ، فإنه أقربُ إليك منك إلى نفْسك ، فما أنت الآن وذكر الصدق ؟ ! وإنما هو منزل من منازل الطالبين .

وبعدُ ، فإن كان قد فتح لك الباب الذى كان بينك وبينه مغلقاً ، وكشف عن قلبك السِّتر الذى كان عليه مرخى ، فأوْجَدك قُرْبه ، ولاطفك ببعض التأنس ، فعساك أن تكون قد صرت إلى بعض سُؤْلك فقرّ قرارُك .

وإن كنت وغيرُك من الطالبين : إنما فقدت وجُودَ مطالبة الصدق ، وما أشبهه من الأمور من وجُودِك لقُرْبِ الله عز وجل والتشاغُل به ، فتلكَ بُغْيةُ العَارِفين بالله عز وجل .

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك ، ولاتتخذ عن لنفسك من حظك من ربك .

واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل ، وأهل القرب منه ، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة ، وظفروا بحظهم من مليكهم ؛ فمن صفاتهم : أن الورع والزهد والصبر والإخلاص والصدق والتوكل والثقة والمحبة والشوق والأنس والأخلاق الجميلة ، ومالم يكن يمكن أن يوصف من أخلاقهم ، وما استوطنوه من البرِّ والكرم فذلك كله معهم ، وساكن فى طبعهم ، ومخفى فى سرائرهم ، لايحسنون غيره ، لأنه غذاؤهم وعادتهم ، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، وعملوا فيه حتى ألفوه ، فلم يكن عليهم بعد الوصول كُلْفة [1] فى إتيانه والعمل به ، إذا حل وقت كل حال ، لأن ذلك غذاؤهم ، كما ليس لهم فى أداء الفرائض ثقلٌ ولا علاجٌ [2] .

وذلك لما غلب على قلوبهم من الإيثار لله عز وجل ، والقُرْب منه ،

---

(١) كلفة : مايكلف به الإنسان على مشقة .

(٢) ومنه قوله ، ﷺ ، فى شأن أحد الصحابة . « قام العبد صهيب لولم يخف الله لم يؤمنه » .

فهم عاملون به بلا مؤونة ، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة ، لأن الخدمة والأعمال الظاهر : إنما تقع على ظاهر الجوارح .

فافهم هذا الموضوع ، والقلوب بعد ذلك ذاهلة ، بل هى بالله مشغولة للذى استولى عليها من قرب الله عز وجل ، والمحبة لله والشوق إليه والرهبة منه والتعظيم له والإجلال .

فافهم أيها المريد ماألقيت إليك وتدبره تجده بيناً معروفاً ، إن شاء الله تعالى .

فأحضر الآن عقلك ، واجمع همك ، ولاتسمع العلم وأنت عازب[1] الفهم عن الذى يُلقى إليك ، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان ، بل قد تأكدت عليك الحجة ، فاعمل فى التخلص إلى الله عز وجل ، لعلك تتخلص ، فتقر عينك بمعرفته فى هذه الدار عاجلا قبل الآجل .

نعم ، ثم يدوم حزنك ، ويشتد كربك ، وتزداد كل حال كنت تجدها أضعاف ماكنت تجدها قبل المعرفة والوصول .

ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ قال الله عز وجل : (إنما يخشى الله مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) .

وقال النبى ﷺ : «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[2]

(١) عازب : غائب .

(٢) خشية : خوف .

وقال ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون[1] إلى الله»

وعلى حسب ذلك كان ﷺ

وكذلك العارف بالله ، القريب من الأشياء ، الموفق فى كل حال يحل فيها بمايكون فيها : بخلاف غيره من الناس .

ثم على هذا القياس ، وفى هذا بلاغ لمن فهم وتدبر .

والله التوفيق .

(١) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء . والحديث متفق عليه إلى قوله «كثيراً» ورواه بهذه الزيادة أحمد والحاكم .

المقربون

قلت : متى يألف العبد أحكام مولاه ، ويسكن فى تدبيره واختياره ؟

قال : الناس فى هذا على مقامين ، فافهم .

فمن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه ، ليقوم بأمره الذى يوصله إلى ثوابه ، فذلك حسن وفيه خيرٌ كبير ، إلا أن صاحبه يقوم ويقع ، ويصبر مرة ويجزع أخرى ، ويرضى ويسخط ، ويعبر ويراجع الأمر ، فذلك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته ، إلا أنه معنى فى شدة ومكابدة .

وإنما يألف العبد أحكام مولاه ، ويستعذب بلواه ، ويسكن فى حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ[1] من نفسه : إذا كان العبد : آلفاً لمولاه ولذكره ، وهو له محبٌّ وادٌّ ، وبه راض ، وعنه راض .

فهل يكون ، أيها السائل ، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه ؟ كيف ؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم ! !

هكذا قال فى الخبر : حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

وقال فى خبر آخر : غنية الصديقين : مازوى[2] عنهم من الدنيا »

---

(١) تلكؤ : تباطؤ

(٢) زوى : جمع والمعنى : (نفى عنهم جمع الدنيا) .

وروى عن الله عز وجل فى بعض ما أنزل من كتبه : أنه قال : « معشر المتوجهين إلىَّ بحبى ، مايضركم مانابكم من الدنيا ، إذا كنتُ لكم حصناً ، وما يضركم من عاداكم إذا كنت لكم سلماً ؟ ! »

فمن كان مع الله عز وجل ، بهذ الأحوال فى المواطن ، كيف يكون إلا على نحو ماذكرناه ! !

ولقد قال بعض العلماء بالله تعالى ، وأهل القرب منه : إن القوم الذين ذكرنا بعض أحوالهم لايرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور عند حلولها ، والأحداث عند نوازلها ، حتى تتمكن من قلوبهم ، فيحتاجون أن يصبروا عليها أو يرضوا بها ، بل الصبر والرضا لهم ، تابع مضاف ، لأنهم طالبوا من أنفسهم صحة الشغل بالله تعالى ، والانفراد به ، فلم يرضوا عند ذلك أن تكون الأمور النازلة بهم تقاوم ذكر الله تعالى ، حتى تساويه : (والله غالب على أمره) .

وبعد ، فإنهم عبيد محكوم عليهم ، وإن أقل القليل فى الأوقات ليملكهم ، حتى يقروا لله تعالى ، بالضعف ويسألوه العون ، فلا تعجب ، إذا بدا[1] لك من أحد منهم شىء من ذلك ، فهذا النبى ، ﷺ ، يقول : « إنى بشر ، اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائى عليه رحمة » .

وسمعت بعض العلماء بالله عز وجل ، يقول : إن من شدة اتصال العبد بمولاه ووجده به ، ونزوله فى قربه لايجد طعم اختلاف الأحكام ،

---

(١) بدا : ظهر.

بل يكون معه النظر الخفي إليها ، حتى كأنها على غيره أو بغيره نازلة .

فهذا غاية من التلقي للأحكام ، فافهم هذا الموضوع وتدبره ، فإنه يؤديك إلى علم السكون إلى الله عز وجل ، إن شاء الله .

وإنما يكون السكون إلى الله تعالى ، والطمأنينة على قدر القرب من القلب .

ومن شرح السكون إلى الله تعالى ، فقد حس الأشياء من القلب وسكون دواعي الهم ، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى !

فعند ذلك تكون الأمور من الدنيا والآخرة ، وأعمال البر والطاعة طالبة للعبد ولاحقةً به ، وإليه محتاجة وإليه واصلة ، بل إليه موصولة ، لأنه عزف عنها[1] واستغنى بمالكها فوصلت إليه .

قال الله عز وجل : ﴿أليس الله بكافٍ عَبْدَهُ﴾[2]

وبلغنا أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى عليه السلام : «أنزلني منك كهمك واجعلني ذخراً لك فى معادك»[3] .

وروى عن النبي ﷺ : من غير طريق أنه قال : «من جعل الهم هماً واحداً[4] كفاه الله سائر همومه» .

---

(١) عزف عنها : انصرف عنها .

(٢) الزمر : ٣٦ .

(٣) معادك : آخرتك .

(٤) فى روايات أخرى : من جعل الهم همًّا واحداً هو المعاد . . أو هو التقوى .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله ، أنه قال : «ماعجبت من عبادة ملك مقرب ولانبى مرسل إذا كان الله عز وجل قواهم على ذلك » .

وهكذا من ذكرناه من القوم وصفاتهم .

فمن نظر إلى عبيد الله تعالى ، بنفسه وقياسه ، وبأنفسهم مايشبههم فهم عنده فى موضع النقص أبداً .

فإذا نظر إليهم بالله عز وجل ، وبقوته وتدبيره فما يعجب ؟

وبالله التوفيق .

مسألة تدل على ماذكرناه ، قلت : فما تقول فى عبد كان لايتكلم ولايتحرك ، ولايعمل عملا إلا طولب عليه فى ذلك ووجد النقصان ولحقته الفترة والقسوة فى أوقات نيله وأكله وشربه ، وكذلك فى جميع أحواله ، ثم صار إلى حالٍ يتكلم ويتحرك فى الأمور ؛ ويقبض ويبسط ، ويأكل ويشرب ، ولا يستوحش ولايجد مطالبةً ولايرى نقصاً كما كان يراه قبل ؟

فقال : «هذه مسألة حسنة فافهمها ، فما أحوج المريدين العمال إليها » .

اعلم أن المريد الطالب للصدق ؛ فهو عاملٌ فى جميع أموره بالمراقبة لله عز وجل بالقيام على قلبه وهمه[1] وجوارحه ، بالمحاسبة .

---

(١) الهم : أول العزيمة

«فهو جامع لهمه حذراً من أن يدخل فى همه مالا يعنيه حذراً من الغفلة»

فالحركات فى ظاهر جوارحه بجوارحه تنقصه ، والهمم الداخلة عليه فى قلبه تكدر همه[1] ، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التى ذكرت ، وإن كانت فى حق وبحق ، وذلك لما غلب على قلبه من محبته أن يكون ذكره دائماً ، وهمه واحداً .

فإذا دام على ذلك تفطن قلبه وصفت فكرته ، وسكن النور قلبه وقرب من الله تعالى ، فغلب على قلبه وهمه !

فعند ذلك يتكلم والقلب يغلى بالذكر لله عز وجل ، وقد كمنت[2] فى سويداء[3] قلبه محبة الله تعالى ، فهى لازمة للضمير لاتفارقه .

فمن شأنه فى سرائره أن يكون ناعماً بالمخاطبة لله الخفية ، والمطالعة الشجية والمحادثة الشهية .

وهكذا يكون فى أكله وشربه ونومه وكل حركاته ، لأن قرب الله تعالى ، إذا تمكن فى قلب العبد غلب على ماسواه من باطن عوارض الهمم ، وظاهر حركات الجوارح ، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً ،

---

(١) همه : انشغاله .

(٢) كمنت : اختفت .

(٣) سويداء قلبه : حبة قلبه .

وآخذاً ومعطياً ، والغالب عليه هم ماقد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه .

ألم تر نفسك ، أيها المريد كيف تملك قلبك أحيانا هم من أمر الدنيا ، فيسلبك عن كل شيء ، حتى يكدر عليك العيش ، فتكون ساهياً إلا عن ذلك ، حتى تفقد النوم ؟

فأمر الله عز وجل : أحرى عند العقلاء وأولى .

فعندما ذكرنا صحبت العبدَ من الله عز وجل العصمة ، فكان محفوظاً من النقصان .

خاتمة الكتاب

فافهم أيها السائل : ما يلقى إليك وتدبره ؛ ينفعك إنْ شاء الله ، تعالى .

وبعد فاعرض ماذكرت لك على ماسألت عنه ؛ فإن أجزاك وكان مافقدت وماوجدت من جنس ماذكرتَ ، فاشكر الله تعالى يزيدك . ولايخفى على العلماء ما يحدث عندك ، فليس بين المريد ومعلمه رئاء ، إن شاء الله تعالى ، وأنى بمؤدب بصير جهبذ فى زماننا هذا .

وبالله التوفيق .

ناسخ الكتاب

تم كتاب «الصدق» للشيخ العارف «أبي سعيد الخراز» ، رحمه الله ، ونفع بأنفاسه ، وسلم عليه سلاماً طيباً مباركاً فيه .

والحمد لله وصلواته على محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

كتبه العبد الضعيف الفقير : إسماعيل بن سودكين ، رفق الله به ، وأخذ بيده ورحمه ورحم والديه وجميع المسلمين .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفهرس

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٥٦٩٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠١-١٩٠٤-٠	ISBN

١ / ٨٨ / ١٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)